الفصل الثالث: الموسوعة

قصة حياتها – موضوعاتها الأساسية

قصة حياة الموسوعة

القارئ الكريم...

تعالَ سويًا نتأمل تجربة مبهرة... إذا كانت موسوعة د. عبد الوهاب المسيرى رائعة فى محتواها وفى أسلوب معالجتها لموضوعاتها، فإن مراحل تدوينها تمثل تجربة لا تقل عطاءً عن المحتوى ذاته، لذلك فإن رحلة كتابة الموسوعة جديرة بالتأمل، فهى مترعة بالدروس والثمار.

لقد اختار د. المسيرى لهذا الفصل عنوان «**الموسوعة: تاريخها**»، واخترت أنا عنوان «**قصة حياة الموسوعة**» إذ رأيت فيها سمات الكائن الحى.

لقد بدأ المشروع بفكرة تُرجمت إلى هيئة بسيطة... ومرت فى أطوار... بل وصاحبتها المعاناة، تمامًا كالجنين... حتى صارت خلقًا آخر... وكالطفل الوليد قابلتها الصعاب بعد أن خرجت إلى الحياة.

الثمرة الحادية عشرة بعد المائة...

الموسوعة: كيف نشأت الفكرة؟

من مرحلة إلى مرحلة، ومن طور إلى طور، حتى صارت خلقًا آخر

متى انتهيت من كتابة الموسوعة؟ أمر واضح لا لبس فيه، فقد سلَّمت (الديسكات) إلى دار الشروق فى يناير سنة 1998، واستمرت عملية التنسيق والإخراج وتصحيح البروفات ما يقرب من عام. وأما متى بدأْت كتابة الموسوعة، فهذا أمر خلافى. وحسمًا لهذه القضية ينبغى أن أُفرق بين ثلاث مراحل:

1- مرحلة التكوين: بدأت دراستى الجادة للصهيونية عام 1964، كما كتبت أول كتيب عنها (بالإنجليزية) عام 1965.

2- مرحلة العمل الموسوعى: فى عام 1970 بدأت فى تأليف كتاب «نهاية التاريخ»، وفى هذه المرحلة بدأت فكرة كتابة موسوعة متكاملة عن اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل تختمر فى ذهنى.

3- مرحلة كتابة الموسوعة ذاتها.

* كيف نَشَأْت الفكرة؟

عندما بدأت فى كتابة «**نهاية التاريخ**» وجدت أن علىَّ أن أتوقف عند كل صفحة لتعريف بعض المصطلحات والشخصيات التى أشير إليها («**الكيبوتس**» - «**بن جوريون**» - «**الهستدروت**» أى الاتحاد العام للنقابات فى إسرائيل...) وكانت الوقفات كثيرة نظرًا لانخفاض مستوى المعرفة بالعدو الصهيونى آنذاك حتى بين المتخصصين. لهذا، قررت أن أستمر فى

كتابة دراستى دون توقف لتعريف كل مصطلح؛ لأن ذلك يُشتت القارئ ويُضعف من تماسك النص، على أن أُلحق بالدراسة «مَسْرَدًا» أُوضِّح فيه ما غَمُض من مصطلحات وأُعَرِّف فيه بالأعلام، ولكن مشروع المَسْرَد تضخم تدريجيًّا إلى أن صار موسوعة معلوماتية من جزء واحد.

*** من طور إلى طور**

1- **البذرة**: يمكن النظر إلى فكرة «**المَسْرَد**» ثم «**الموسوعة المعلوماتية الصغيرة**» باعتبارها البذرة التى مرت بأطوار مختلفة حتى وصلت إلى الموسوعة التى بين أيدينا. وكان الهدف من الموسوعة المعلوماتية «توفير المعلومات للقارئ والباحث العربى حتى لا يُضَيِّعا وقتيهما وجهدهما فى البحث عن المعلومات، وحتى يتفرغا للعملية البحثية الحقيقية»، لكننى اكتشفت بعد قليل من البحث والتعمق أن عملية جمع المعلومات، مهما بلغت من كثافة وذكاء وحذق، هى عملية لا نهاية لها، ولا جدوى من ورائها، وهى لا تأتى بالمعرفة أو بالحكمة؛ لأنها تمثل وجهة نظر المصدر الذى ننقل عنه دون نقد أو تحليل.

2- **موسوعة 1975**: «**موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية**»: حين أدركت عدم جدوى «الموسوعة المعلوماتية» التى تُعرِّف بالمصطلحات والأعلام على الطريقة الشائعة والمعروفة، نشأت فكرة كتابة **موسوعة تفكيكية شاملة**، تحاول تفكيك المصطلحات لتوضيح المفاهيم والتحيزات الكامنة وراءها بدلًا من الاكتفاء بتلخيصها وعرضها.

3- **الموسوعة**: كنت قد كتبت فى مقدمة موسوعة 1975 «أن هذه طبعة أولية أو ورقة عمل يمكن أن يتبناها أحد مراكز البحوث العربية كأساس لمشروع بحثى ضخم يهدف إلى إصدار الموسوعة

العربية الشاملة عن هذا الموضوع»، وأرسلت بالاقتراح لمراكز البحوث العربية المختلفة (فلم يرد أى منها لا بالنفى ولا بالإيجاب)، كما رفض مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية فى الأهرام أن يُعيِّن أحد الباحثين لتحديث موسوعة 1975 أولًا بأول وفتح ملفات لكل مدخل من مداخلها. لذا حين وصلت إلى الولايات المتحدة عام 1975، قررت أن أبدأ عملية التحديث بنفسى. وبعد جهد كبير استغرق 25 سنة خرجت **الموسوعة التأسيسية التركيبية** إلى النور عام 1999 بعنوان «**موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيرى جديد**»، والتى نشير إليها باسم «**الموسوعة**».

الثمرة الثانية عشرة بعد المائة...

من الموضوعاتية إلى التفكيك إلى حلزون التركيب والتأسيس،

وأخيرًا اكتمل الـ Jigsaw

ذكرتُ كيف تحولت فكرة عمل «مَسَرد» يُعرّف بالمصطلحات والشخصيات اليهودية إلى «**موسوعة معلوماتية صغيرة**»، ادركت بعد قليل من التأمل عدم جدواها، عندها نشأت فكرة «**موسوعة 1975**» وخرجت إلى الوجود حاملة «**رؤية نقدية**» لما تعرضه من مفاهيم. وفى عام 1985 انتهيت من عملية التحديث لموسوعة 1975 بل وبدأت طباعة ما تصورت أنه النسخة الأخيرة على الآلة الكاتبة.

فى هذه الأثناء بدأْت أدرك الطبيعة التفكيكية لموسوعة 1975، وتنبهت أن التفكيك غير التأسيس، وأن ما أقوم به هو تفكيك وحسب، الأمر الذى غَيَّر من رؤيتى لكثير من الأمور. ومما لا شك فيه أن **التفكيك أمر حتمى وضرورى، فهو يكشف المفاهيم الحقيقية الكامنة** ويُزيل الغشاوات التى يزيف بها أصحاب المصالح الحقيقة، لذلك فمهمة الناقد التفكيكى أن يبين

عناصر التحيز الكامنة فى الخرائط الإدراكية والنماذج التحليلية المهيمنة، والتى تُعَبر عادة عن السلطة القائمة، إذ تولِّد معرفة تخدم هذه السلطة. ولكن **التفكيك يترك الكثير من جوانب الظاهرة دون تفسير.**

وعندما أعـــدتُ النظر فى الصورة النهائية التى شَرَعتُ فى طباعتها عام 1985، **اكتشفتُ أننى لم أعد أُفكِّك وحسب**، وإنما بدأت أطرح مصطلحات ومقولات تحليلية بديلة وأصوغ نماذج تفسيرية جديدة، «أكتشف» من خلالها حقائق هامة متناثرة فى بطون المراجع المختلفة قامت النماذج السائدة بتهميشها، كما بدأت أعيد تعريف بعض المصطلحات القائمة، بما يتفق وحقيقة الواقع كما أراه، لا كما صاغته المراجع والمصطلحات الصهيونية، كما قمت بسك اصطلاحات جديدة فى بعض الأحيان.

لقد اكتشفتُ أننى أقوم بعمل تركيبى تأسيسى، **فالتأسيس عملية إبداعية تركيبية** تتجاوز التفكيك، فهى تتطلب نحت نماذج مختلفة والربط بينها، كما تتطلب الغوص فى كل الأبعاد السياسية والاقتصادية والدينية والمعرفية للظاهرة، وإعادة ترتيب الوقائع وتصنيفها فى ضوء النماذج التحليلية الجديدة.

بناء على ذلك، لم تعد الموسوعة موسوعة معلوماتية تحاول لتوفير المعلومات للقارئ عن طريق ترجمتها ومراكمتها من المراجع والصحف الأجنبية والعربية (**الطور الأول**)، ولا حتى موسوعة تفكيكية تحاول أن تهدم النماذج القائمة (**الطور الثانى**)، وإنما أصبحت موسوعة تأسيسية تطرح نماذج تحليلية مترابطة ومصطلحات بديلة وبرنامجًا بحثيًا جديدًا فى موضوعات اليهودية والصهيونية والإسرائيلية (**الطور الثالث**). ولو ظلت الموسوعة موسوعة معلوماتية؛ لأصبح حجمها ضعف الحجم الحالى (ثمانية مجلدات) ولتم إنجازها فى أقل من نصف الوقت الذى قضيته فى كتابة الموسوعة الحالية، ولو كانت موسوعة تفكيكية وحسب لنُشِرَت عام 1985.

فى هذه الفترة (1984 – 1985) تحوَّل الإسلام بالنسبة لى من مجرد عقيدة أؤمن بها إلى **رؤية للكون** يمكن للإنسان أن يُولِّد منها نماذج تحليلية ذات مقدرة تفسيرية عالية. كما أدركت أن الإسلام يعطى إجابات شافية عن الأسئلة النهائية.

كذلك بدأت الموضوعات الفكرية الأساسية فى حياتى والتى كانت متشابكة بالفعل تزداد تشابكًا (الصهيونية كاستعمار استيطانى وكأيديولوچية لأعضاء الجماعات اليهودية ـ الهجيلية والحلولية ونهاية التاريخ ـ الاستهلاكية ومصير الإنسان ـ التحيزات المعرفية والحاجة لمشروع حضارى مستقل ـ الحاجة إلى استخدام النماذج كأدوات تحليلية ـ اليهودية والحلولية). **وتحولت الأفكار المتناثرة إلى فكر متماسك ثم أخذت شكل نموذج معرفى متكامل،** جعل من العسير عَلَىَّ تناول بعض الظواهر من الناحية السياسية والبعض الآخر من الناحية المعرفية. ومن ثم **أصبحت دراساتى فى الصهيونية واليهودية جزءًا من انشغالى الفكرى العام.**

* طبيعة العمل الموسوعى

مما سبق يتضح ما تتسم به الموسوعة من الترابط الشديد، حتى إننى كثيرًا ما كنت «أكتشف» معلومات فى بطون الكتب والمراجع الصهيونية وغير الصهيونية تغير من رؤيتى وتُعَدِّل من نماذجى التحليلية وتضطرنى إلى إعادة النظر فى كل ما كتبت. **فالعلاقة بين النموذج التحليلى والمعلومات علاقة «حلزونية»،** فالنموذج يعيد ترتيب المعلومات وتنسيقها، والمعلومات تعيد ترتيب النماذج وتنسيقها. فأجد نفسى مضطرًا إلى إعادة كتابة الموسوعة بأسرها.

كذلك **يختلف العمل الموسوعى فى طبيعته عن العمل التأليفى العادى.** فحينما يكتب المؤلف كتابًا فإنه يحدد لنفسه الموضوع الذى سيكتب عنه

وحدوده، وماذا يقع داخل نطاق الكتاب وماذا يمكن استبعاده. أما الموسوعة فلها منطق مختلف فهى **تشبه الـ Jigsaw** (مجموعة من القطع الخشبية أو الورقية لا تظهر الصورة المرسومة عليها إلا بعد إتمام ترتيبها الواحدة بجوار الأخرى). فمدخل ما يولِّد إشكالية لا يمكن تجاهلها، ذلك لا بد من كتابة مدخل عنها، ولكن هذا الأخير يولِّد إشكالية أخرى، وهكذا.

كما **تشبه الموسوعة بناءً ضخما**، يكتشف البانى قرب الانتهاء منه أن هناك نوافذ وأبوابًا ناقصة وأخرى يجب تعديلها، وأنه لا بد أن يُضاف شىء هنا وشىء هناك. فمثلًا إن كتبت مدخلًا عن كلمة «يهودى»، وآخر عن «إسرائيلى»، وثالثًا عن «صهيونى»، فهذا يتطلب أن تكتب عن «عبرى» أيضًا. وكلمة «يهودى» تتطلب أن تكتب عن «يهودى أرثوذكسى» و«يهودى علمانى»، وهكذا. وأفرِّق هنا بين **الاكتمال** completeness **والكمال** perfection، فما كنت أحاول أن أصل إليه هو الاكتمال، أما الكمال فهو لله وحده، والموسوعة هى التى تقرر هل اكتملت أم لا.

ولأضرب مثالًا آخر للصعوبات المنهجية اللانهائية التى تواجه العمل الموسوعى: **أنكر تمامًا وجود ثقافة يهودية أو شعب يهودى**، كما أنكر أن تكون «يهودية» مفكر يهودى ما هى العنصر الأساسى والمحدد لفكره. ومع هذا وجدت أننى فى موسوعة عن اليهود لا بد أن أكتب عن «أعلام اليهود «للتعريف بهم ولتوضيح وجهة نظرهم، فكيف يكون مبدأ الاختيار والإبقاء والاستبعاد؟ وحلًا لهذه المشكلة، قررت أن أكتفى بالكتابة عن مشاهير الأعلام من أعضاء الجماعات اليهودية (فرويد ـ كافكا ـ ماركس ـ كيسنجر ـ تروتسكى) علىّ أن أختار بعض الشخصيات ممن هم أقل شهرة بحُسبانهم حالات ممثِلة لإشكاليات توضح وجهة نظرى.

الثمرة الثالثة عشرة بعد المائة...

دروس فى التغلب على الصعاب

* **البحث عن مساعَـدة:** عندما تبلورَت فكرة موسوعة 1975، كتبت اقتراحًا بالمشروع وتقدمت به إلى مجلس الخبراء بمركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام، فرُفض الاقتراح بحجة أنه **لا توجد كوادر كافية لكتابة مثل هذه الموسوعة**، فاقترحت أن تكون الموسوعة هى الوسيلة لتوليد مثل هذه الكوادر وتدريبها، ولكن المجلس لم يقتنع بوجهة نظرى واكتفى بأن يسمح لى بالاستمرار فى كتابتها من خلال الإمكانات المتاحة بالفعل للمركز (المكتبة - بعض المساعدين) دون اعتماد ميزانية خاصة.

* **تضـييـق الخنـاق:** بعد خروج الأستاذ هيكل من الأهرام قامت إدارة المركز الجديدة بتضييق الخناق عَلَىَّ **وتقليص حجم الخدمات المتاحة** التى كانت محدودة من البداية (ولذا كنت أقول إن الحاج حصافى المسيرى، أى والدى، هو الذى مَوَّلَ هذه الموسوعة). وقد ساعدنى على تجاوز هذه العقبة **العمل التطوعى** الذى قام به الكثير من طالباتى، إذ ساعدنى على إنجاز أعمال السكرتارية، وهى كثيرة فى العمل الموسوعى، ولولا هذه المساعدات لتعذر عَلَىَّ إنهاء العمل.

* **ريـاح التطبـيع:** عندما بدأت رياح التطبيع تهب أخذ بعض الكُتّاب يتحدثون عن حرب 1973 باعتبارها الحرب الأخيرة، كما أخبرنى البعض أن موضوع اهتمامى وتخصصى (أى الصهيونية) أصبح «موضة قديمة «عفا عليها الزمن. لذلك أصبحت الموسوعة مصدر مخاوف لكبار الإداريين فى مؤسسة الأهرام، فشُكِّلت لجنة لفحص الموسوعة بنيّة

إجهاض خطوات نشرها، فأفتت اللجنة بصلاحيتها للنشر، ولا شك أن انتفاضة الأقصى الأخيرة قد وضعت حدًا لهذا الهزل.

* **الافتقار إلى البعد المعرفى:** كنت فى مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بصحيفة الأهرام محاطًا بمجموعة من الباحثين الذين لم يدركوا أهمية البعد المعرفى، **إذ كان خطابهم التحليلى سياسيًا بشكل سطحى**، فكانوا دائمى السخرية من تحليلاتى، مما جعلنى أشعر بالوحدة الشديدة. وفى محاولة للدفاع عن نفسى ومن باب التعويض **زادت نرجسيتى بشكل واضح**، إذ كنت لا أكف عن الحديث عن نفسى وعن إنجازى وأهميته. وقد تعلمت من هذا أن النرجسية ـ وهى صفة ممجوجة ـ قد تكون ضرورة نفسية فى حالة غياب المتلقى، فكل مؤلف يحتاج إلى درجة من الثقة بالنفس وإلى جمهور يستجيب لما يكتب ويعطيه قدرًا من الشرعية، فلا يمكن لأى كاتب أن يضع مؤلفاته بشكل مجرد وفى المطلق!.

* **نجت الموسوعة من المفرمة:** ولم تلق موسوعة 1975 ما تستحق (فى تصورى) من ذيوع، ربما لأنها صدرت مع الاتفاق الثانى للفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية. وقد أخبرنى أحد الأصدقاء من أعضاء النخبة الحاكمة أن أحد البنود السرية لهذا الاتفاق كان ينص على **عدم توزيع الموسوعة**، فأودعت فى مخازن الأهرام وكادت أن تُحوَّل إلى ورق مفروم، ولكن اشتراها موزع كتب سعودى، وقام بتوزيعها هناك؛ لذا فوجئت بأنها معروفة فى السعودية أكثر منها فى أى مكان آخر.

* **الرشوة وتزييف الفكر:** بعد صدور موسوعة 1975 وسفرى إلى الولايات المتحدة بدأت هناك محاولات «**رشوتى**»، فتم ترشيحى للمشاركة فى رئاسة معهد لدراسة الصراع فى الشرق الأوسط بأى

راتب أحدده، وقد رفضت هذا العرض بعد أن اكتشفت أن شريكى فى الرئاسة صهيونى بارز يُدعى ستيفن كوهين من حزب العمل الإسرائيلى.

كما **نُشرت كثير من الشائعات حولى**. فعلى سبيل المثال، نشر المرحوم الأستاذ على حمدى الجمال مقالًا لى فى الأهرام بعد أن أضاف إليه مقدمة «من عنده» يُفهم منها أننى أؤيد قرار إعادة نشر القوات (عام 1977)، مع أن مقالى كان عن النظام الحزبى فى إسرائيل. كما نشرت جريدة الأهالى خبرًا يفيد أننى من مؤيدى كامب ديفيد. **وكانت هذه الحملة تهدف إلى إثبات أن ملف الصهيونية قد أُغلق تمامًا**، وأن واحدًا من أهم المتخصصين فى هذا الموضوع يذهب إلى هذا الرأى. كان من الحتمى لهذه الحملة أن تُكشف وتُفضح، وبالفعل قامت صبرا وشاتيلا وكتابى عن الأيديولوچية الصهيونية بوضع حد لكل هذا.

إننى أؤمن بأن إسرائيل، بنية استيطانية إحلالية، وأن عنصريتها وعدوانيتها وتوسعيتها جزء لا يتجزأ من وجودها، لذلك **تحولت الموسوعة فى ذهنى إلى معركة ضارية مع العنصرية والاستعمار**. بل إننى كنت أؤكد دائمًا أن معركتى مع الصهيونية ليس لها علاقة كبيرة بالصراع العربى الإسرائيلى، فعدائى للصهيونية ينبع من عدائى لكل أيديولوچيات العنف والعنصرية (مثل النازية والتفرقة اللونية فى جنوب إفريقيا)، ومن ثم لو **اختفت إسرائيل من على وجه الأرض أو تصالح معها كل العرب لظل عدائى للصهيونية كما هو**. وكان عَلَىَّ تقرير هذه الرؤية فى دراساتى، فأنا كمثقف لا أملك سوى رؤيتى وأفكارى وكلماتى، لا يمكننى التهاون فيها. إذ لو فعلت غير ذلك، فماذا يتبقى لى ؟.

لكل هذا (أو بالرغم من هذا) واصلْتُ جهودى وسارعت بعملية «تحديث» موسوعة 1975 بمجهوداتى الخاصة، رغم كل مؤشرات «السلام الدائم» الكاذبة.

* **صـارت الموسوعة تتحكم فى حياتى**: ولإنجاز الموسوعة (والتى بلغ عدد كلماتها ما يزيد على مليونين)، كان على أن **أتبع نظامًا حديديّا فى حياتى**. فأهملت الكثير من مسئولياتى العملية وضمرت حياتى الاجتماعية إلى حدٍّ كبير. كنت أستيقظ فى الصباح المبكر قبل السادسة وأبدأ فى الكتابة حتى الثانية عشرة مساءً لا أتوقف إلا لتناول وجبات الطعام أو النوم ساعة فى الظهيرة، وتستمر هذه العملية ما يزيد أحيانًا عن عشرة أيام. وحينما كنت أذهب للاصطياف كنت أملأ حقيبتين بالمراجع؛ لأن ساعات العمل فى المصيف كانت أكثر. ولم أكن أقرأ إلا ما له علاقة بموضوع بحثى: اليهود واليهودية والصهيونية. وقد زادت وتيرة العمل منذ عام 1990 حين عدت من الكويت واستقلت من الجامعة، حتى يُصبح وقتى مُكرَّسًا كلُّه للموسوعة بالرغم من عدم وجود دخل ثابت (وقد وافقتنى زوجتى وابنى وابنتى على ذلك بعد نقاش استغرق خمس دقائق).

ومما ساعدنى على الاستمرار فى كتابة الموسوعة عبر ربع قرن، أننى كنت دائمًا أتصور أننى على وشك الانتهاء منها، فكانت تظهر لى مقالات أذكر فيها أن الموسوعة ستصدر فى يناير سنة 1990 ثم نوفمبر سنة 1992 ثم أكتوبر سنة 1994 وهكذا. وأنا لم أكن أكذب على القُراء؛ لأن هذا كان تصورى بالفعل. بل أننى كنت أطبع إعلانات عن الموسوعة، وهناك إعلانات عن موسوعة من أربعة مجلدات ثم ستة ثم سبعة ثم ثمانية. ويبدو أننى كنت فى واقع الأمر أخدع نفسى، حتى يمكننى الاستمرار فى هذا المشروع الضخم.

وكما ذكرت، بدأتُ عملية التحديث فى الولايات المتحدة مستغلًا قُربى من المكتبات ومصادر المعلومات. وفى الرياض، تفرغت تمامًا للموسوعة التى **بدأت تتحول إلى مؤسسة**، إذ أصبح هناك مكتب للترجمة العبرية لتزويدى بأهم المقالات فى الصحف الإسرائيلية. وكانت هيئة الموسوعة تضم عددًا من العاملين بالسكرتارية (واحد فى القاهرة وآخر معى فى أى بلد أكون فيه)، وبعض المساعدين البحثيين، بعضهم فى الولايات المتحدة، ومحررين، وكاتبًا على الكمبيوتر، وماكينات تصوير، وجهازَىّ كمبيوتر وليزر. كما سبق أن كلفت عددًا من الباحثين المتخصصين أن يكتب كل واحد منهم مدخلًا أو أكثر فى حقل تخصصه.

لا يعرف الكثيرون من الأساتذة الجامعيين والباحثين أهمية وجود **مساعد باحث** ليجمع لهم المادة العلمية، فهم يخلطون بين هذه المهمة وبين التأليف، ولذلك يقومون بإعداد كل شىء بأنفسهم مما يستنفذ طاقتهم. ولكنى ـ والحمد لله ـ اكتشفت وظيفة مساعد الباحث هذه فى مرحلة مبكرة من حياتى؛ لأنى أفرق دائمًا بين الحقائق والحقيقة، وبالتالى بين التجميع والتأليف.

* **خشية التلاكيك الصهيونية**: نبهنى أحد الأصدقاء إلى **حقوق نشر الصور**، وأن الصهاينة قد يوقفون نشر الموسوعة من هذا المدخل، خاصةً بعد توقيع اتفاقية الجات واتفاقيات الملكية الفكرية. وبدأتُ رحلة طويلة للسؤال عن هذه القضية، فلم أخرج بإجابة شافية، وحيث إننى كنت أخشى مصادرة الموسوعة عدلت عن نشر الصور، على أن أنشرها فى كتب منفصلة فيما بعد.

* **المراجع**: كانت مسألة الحصول على المراجع شاقة ومكلفة، كانت مساعدتاى العاملتان فى الموسوعة فى الولايات المتحدة تقومان بالبحث

عن الكتب والمقالات التى أحتاجها ثم ترسلان بها عن طريق إحدى الحقائب الدبلوماسية خلال يوم أو يومين. وإذا كانت كمية الكتب كبيرة، كان صديق لى فى أحد خطوط الطيران يعمل على شحنها مجانًا على طائرات الشركة، مما كان يوفر لى الكثير من الوقت والمال والعناء.

* **نحيا سويًا أو نموت سويًا:** أثناء الاجتياح العراقى للكويت، اكتشفت أن كل مراجعى وأوراقى ونسخة الموسوعة الوحيدة موجودة هناك، فقررت أن أذهب إلى الكويت؛ إما أن أمكث بجوار أوراق الموسوعة ومراجعها، وإما أن أحضرها معى إلى القاهرة. وقمت بالرحلة، ومكثت فى الكويت أثناء الاجتياح زهاء ثلاثة أسابيع (لم أتوقف أثناءها عن العمل فى الموسوعة). ثم اتفقت مع مجموعة من الأصدقاء على استئجار «تريللا» (عربة نقل ضخمة) وضعت فيها كل صناديق الأوراق التى تخصنى (حوالى ثلاثين صندوقًا) وركب أصدقائى سياراتهم، ونسيت أنا سيارتى من فرط فرحتى بالأوراق، وذهبنا إلى بغداد ومنها إلى الرشيد فالعقبة فنويبع فمصر الجديدة فى القاهرة.

* تظهر الكرامات بعد أن تتقطع الأسباب

أثناء العودة من الكويت حدث ما يشبه المعجزة؛ تعطل شكمان إحدى السيارات فى وسط الصحراء، وكان مطلوبًا إيجاد سلك لربطه لحين الوصول إلى إحدى الورش، فبدأت أسير على قدمَىَّ فى الصحراء فى اتجاه ما، فضحك رفاقى مما أفعل، فى هذه اللحظة وقعت عيناى على لفة سلك كاملة، فأخذتها وأعطيتها إياهم وواصلنا المسير!

* **السطو والنصب:** تعرضتُ لعمليات نصب كثيرة، فأنا لست مؤسسة وإنما **فرد أعزل من السلاح ومن المقدرة على الردع**. فحين كلفت بعض

الباحثين بكتابة مداخل لموضوعات الموسوعة كان بعضهم يكتب كلامًا معلوماتيًّا غَثًّا وأضطر لدفع مكافآتهم كاملة. أما أفجرهم فقد قام بنقل مدخلًا عن الكنيست من موسوعة 1975 وقدمه على أنه من تأليفه، وهذه أغرب عملية سرقة فكرية فى التاريخ! وكان هناك مساعد باحث أمريكى أرسل إلىَّ من الولايات المتحدة بكلمات خطابية طنانة عن المنظمات اليهودية المعادية للصهيونية، إذ تصور أن مثل هذا الكلام سيعجب «العرب»، فأرجعتها إليه وعنفته وأخبرته أن مثل هذا الهراء لا يفيد كثيرًا، فأرسل بمادة بحثية حقيقية مع اعتذاره. كذلك تقاضى رسام ومشرف وناشر دفعات ماليه من أتعابهم ورفضوا أن يردوها بالرغم من عدم قيامهم بأى عمل.

الثمرة الرابعة عشرة بعد المائة...

* المؤامرة اليهودية ضدى.

كثيرًا ما يُطرح علىّ سؤال؛ هل تَعَرَّض لك «اليهود» بِشَر؟ ماذا فعل بك الصهاينة؟. نعم لقد تنوعت محاولات الصهاينة للإضرار بى:

- طلب الإسرائيليون **عدم توزيع موسوعة 1975**. ليست عندى وثائق تثبت ذلك، ولكن هذا ما أخبرنى به أحد كبار المسئولين، ويؤيد ذلك إهمال الموسوعة فى مخازن جريدة الأهرام فترة طويلة.

- حينما كنت أعمل مستشارًا ثقافيًّا للوفد الدائم للجامعة العربية لدى هيئة الأمم المتحدة فى نيويورك فى منتصف السبعينيات، حدث أن سُرق من منزلى كل شىء، كل ما أملك من متاع الدنيا، بما فى ذلك مكتبتى الخاصة، ومسودات الكتب والمقالات التى كنت أُعدها

للنشر، وكذلك نسخة الدكتوراه الوحيدة التى كتبتها زوجتى. سببت عملية السرقة لنا الكثير من الدهشة؛ فبيتنا لم يكن يحتوى نفائس تستحق السرقة. وأخبرنا بعض الإخوة العرب، ممن تمرسوا فى هذه الأمور، أن من قام بالسرقة هم عملاء صهاينة بهدف الإرهاب النفسى وإفقاد التوازن.

- بعد وصولى إلى الرياض بعدة أشهر للتدريس فى جامعة الملك سعود (عام 1983)، بدأتُ فى تلقى سيلًا من الخطابات من «**جماعة كاخ الإرهابية**» الصهيونية التى يتزعمها مائير كاهانا، تطلب منى التوقف عن نشاطاتى المعادية للصهيونية وإلا قاموا بقتلى. وقد أرسَلَت إلىَّ الجماعة سبع رسائل على عنوانى فى القاهرة وستة أخرى على عنوانى فى الرياض، كما أرسلوا بضع رسائل إلى مدير الموسوعة. قابلت الموضوع برمته بشىء من الاستخفاف فى بادئ الأمر، ولكننى أبلغت مباحث أمن الدولة فى مصر ووزير الداخلية السعودى بالأمر. وقد ثبتت جديه هذه التهديدات بعد أن صرح مائير كاهانا بأنه هو الذى قام بإرسال الخطابات، فزودتنى الحكومة المصرية بالحراسة اللازمة، وكان من ضمنها شرطيان يجلسان أمام مدخل منزلى مما جعل البعض يتصور أننى عُيِّنت وزيرًا، وبدأت التهانى تنهال على زوجتى !.

- كَشَفَت جريدة العربى (القاهرية) فى عددها الصادر فى 11 من أكتوبر عام 1993 أنها حصلت على **وثيقة تخصنى من داخل السفارة الأمريكية بالقاهرة**. والوثيقة عبارة عن خطاب موجه من جامعة بار إيلان الإسرائيلية إلى السفير الأمريكى جاء فيه: «لقد فكرنا فى أن يقوم ماركس بإعداد بعض الأوراق التى تثبت أن هناك علاقة بين المركز الأكاديمى الإسرائيلى وبين عدد من رموز القوى السياسية فى مصر التى تعادى السلام مثل د. رفعت السعيد القيادى البارز

بحزب التجمع المصرى أو الدكتور عبد الوهاب المسيرى أو أحد رموز علماء الأزهر أو أحد رموز جماعة الإخوان المسلمين. إن تسريب معلومة كهذه سوف يثيرالشكوك حول مواقفهم، وحتى لو أفرطوا فى تكذيب هذه المعلومات، فإنها بلا شك سوف تبعث الكثير من الثقة فى نفوس المتعاونين الحقيقيين معنا».

- بعد صدور الموسوعة وصفها بعض المعلقين السياسيين فى إسرائيل بأنها **معادية للسامية** لأنها تفرق بين العقيدة اليهودية والقومية اليهودية. وقالت الجيروساليم بوست (عدد 25/ 7/ 1999) «إن عداء الدولة المصرية تبدى فى منح جائزة معرض الكتاب الدولى لعام 1999 لموسوعة معادية للسامية من ثمانية مجلدات».
- حاول الملحق الثقافى الإسرائيلى **استئجار شقة فى عمارتى** من خلال وسيط، ولكننى رفضت حينما اكتشفت الأمر.

إن الأفعال والمكايد التى دُبرت ضدى لم تكن جزءًا من مخطط سرى يهودى رهيب، أو جزءًا من عداء اليهود الأزلى للأغيار، بل هى **أفعال تقوم بها كثير من الدول ضد من يعاديها**. وتاريخ المخابرات الأمريكية – على سبيل المثال – ملىء بمثل هذه الوقائع. والمهم هو أن يدرك الإنسان أن العالم ليس بريئًا كما قد يتصور، وأن يحترس حتى لا يقع فى يد من يعاديه.

الموسوعة: الموضوعات الأساسية

القارئ الكريم...

لقد ابتعد د. المسيرى فى الموسوعة تمامًا عن عمليات القدح والتشهير باليهود والصهاينة، بل إنه ابتعد أيضًا عن محاولات التعبئة والدفاع عن الحق

العربى... إلخ. وبدلًا من ذلك، قام بتفسير الظواهر اليهودية والصهيونية من خلال عمليتى تفكيك وتركيب تطلبتا الإحاطة بالظواهر اليهودية والصهيونية. وبذلك حَرَصت الموسوعة على ألا تسقط فى التعميمات الاختزالية السهلة أو فى القوالب الإدراكية واللفظية الشائعة التى تهيمن على كثير من الدراسات اليهودية والصهيونية والإسرائيلية.

وتعالج الموسوعة فى مجلداتها الثمانية (3500 صفحة، ما يزيد على مليونىّ كلمة) ثلاثة موضوعات رئيسية متداخلة:

أولًا: العلمانية الشاملة والحلولية والجماعات الوظيفية «**كنماذج تحليلية**» تنطبق على اليهود والصهاينة.

ثانيًا: تصحيح المفاهيم الرئيسية التى حَرَصَت الصهيونية على تأصيلها، حول اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل.

ثالثًا: معالجة مفهوم «معاداة اليهود واليهودية».

أولًا: النماذج المعرفية التحليلية

نموذج الجماعات الوظيفية

أكد د. المسيرى من قبل رفضه وهمَ الموضوعاتية المتلقية ورصد الواقع بشكل سلبى، وطرح بدلًا من ذلك مفهوم «النموذج» كأداة تحليلية أساسية ننظر من خلالها إلى الواقع. وقد استخدم المسيرى فى الموسوعة ثلاثة نماذج رئيسية، النموذج الأول والثانى مترابطان وهما «الحلولية» و«العلمانية الشاملة»، وقد سبق تناولهما. أما النموذج الثالث فهو نموذج «الجماعات الوظيفية».

الثمرة الخامسة عشرة بعد المائة...

الجماعات الوظيفية: نموذج معرفى تحليلى هام

الجماعات الوظيفية هى جماعات يستجلبها المجتمع من خارجه أو يجندها من داخله (من بين الأقليات العرقية والدينية أو حتى من بعض القرى أو العائلات)، ويوكل إليها وظائف شتى لا يمكن لغالبية أعضاء المجتمع الاضطلاع بها، رغبة من المجتمع فى الحفاظ على تراحمه وقداسته .

* أهم الجماعات الوظيفية ودورها

1 - الجماعات الوظيفية المالية «**الجماعات الوسيطة**». يقوم أعضاؤها بالتجارة وأعمال الربا وجَمْع الضرائب، وبنشاطات مالية أخرى مثل السمسرة والبورصة وتغيير العملة والمزادات (الأرمن فى الدولة العثمانية ـ اليونانيون فى مصر ـ الصينيون فى جنوب شرقى آسيا ـ اللبنانيون والهنود فى شرقى إفريقيا). ويَكِل المجتمع هذه الوظائف التى تتطلب الموضوعية والحياد والقسوة لهؤلاء المتعاقدين الوافدين الذين يتم عزلهم عن المجتمع مع الاستفادة من خبراتهم فى أداء هذه الوظائف.

2 - الجماعات الوظيفية القتالية «**المرتزقة**». ويضطلع أعضاؤها بدور القتال، مثل المماليك والإنكشارية والساموراى والحرس السويسرى. ولكى يؤدى هذا العنصر وظيفته (قتل أعداء سيده الذى يدفع أجره) عليه ألا يمارس تجاههم أى إحساس بقدسيتهم وحرمتهم، حتى يتمكن من قتلهم بشكل آلى محايد بارد.

3 - الجماعات الوظيفية **الاستيطانية**. وهى جماعات بشرية تُوَطِّنها الإمبراطوريات فى مناطق نائية أو إستراتيجية بهدف تعميرها أو

التحكم فيها أو قمع سكانها. ومن أمثلتها سكان كريت واليونان الذين وُطِّنوا فى الشرق فى العصر الهيلينى (مجىء كليوباترا على رأس اليونانيين إلى مصر).

4 – الجماعات الوظيفية **الحِرَفية والمِهَنية** المتميِّزة التى يتطلب العمل فيها مهارات خاصة؛ مثل الطب وقطع الماس وصنع التحف والاتجار فيها. فالإنسان المتميِّز (الطبيب – الكاهن – الساحر) يتمتع برهبة وتحيط به الهالات، وإن أصبح إنسانًا عاديًا فلن يحتفظ بهيبته ولن يتمكن من أداء وظيفته التى تتطلب قدرًا من الانفصال عن مجتمع الأغلبية والتعالى عليه. وتلجأ بعض المدن الإيطالية إلى استجلاب قضاة غرباء لضمان حيادهم وموضوعيتهم، ويشبه ذلك استقدام حكام لمباريات كرة القدم. ولعل استمرار رجال القضاء فى إنجلترا وغيرها من الدول فى ارتداء الشعر المستعار هو محاولة من جانبهم لأن يحتفظوا بمسافة بينهم وبين المجتمع.

5– الجماعات الوظيفية ذات **الأعمال المشينة**، مثل نزح المجارى ودباغة الجلود والجزارة وجمع القمامة ودفن الموتى وتنفيذ أحكام الإعدام والبغاء.

فمهنة البغاء تتطلب قدرًا كبيرًا من الموضوعية والحياد والانفصال عن المجتمع حتى يتمكن الإنسان من تحويل جسد إنسان آخر إلى مجرد آلة أو أداة، وهذا أمر عسير للغاية فى إطار الترابط الاجتماعى والإيمان بقداسة الجماعة التى ينتمى إليها المرء، كما أن البغىَّ إن مارست عواطف الحب والكُره أثناء ممارستها وظيفتها فإنها تُستهلَك تمامًا. ومن ثم كان يتم استيراد البغايا فى معظم المجتمعات التقليدية من الخارج (الإثيوبيات فى معظم بلاد إفريقيا ـ اليهوديات فى روسيا القيصرية ـ اليونانيات والإيطاليات والروسيات ـ مؤخرًا ـ فى

مصر). وحين كانت البغايا يُجندن من العنصر السكانى المحلى، فإنهن عادةً ما كُنَّ يرتدين أزياء خاصة ويَقْطُنَّ فى أحياء خاصة حتى يتم الحفاظ على المسافة بينهن وبين المجتمع ككل (مثل شارع كلوت بك فى مصر وصاحبات الرايات الحمر فى مكة أيام الجاهلية). حتى أن البغايا فى السودان إن كنّ من أصل سودانى، عادةً ما يَدَّعين أنهن إثيوبيات، حتى أصبحت كلمة «إثيوبية» تعنى «بغيًا»، تمامًا كما حدث فى أوروبا حين أصبحت كلمتا «تاجر» و«مرابى» مرادفتين لكلمة «يهودى».

6 - **الجماعات الوظيفية الأمنية**، والتى يعمل أعضاؤها فى **وظائف حساسة** بسبب قربها من الحاكم وحياته الخاصة (المستشارون والحرس الملكى والأقزام والخصيان والجواسيس والطهاة). وعادة ما يكون هؤلاء الغرباء منقطعى الصلة بالقاعدة الجماهيرية، لضمان التصاقهم تمامًا بالنخبة الحاكمة وخدمتها بولاء أعمى، إذ إن بقاءهم الجسدى ذاته منوط بمدى رضا النخبة الحاكمة.

*** سمات الجماعة الوظيفيـة**

يتسم أعضاء الجماعة الوظيفية بأن **علاقتهم بالمجتمع علاقة نفعية تعاقدية**، إذ يُنظر إليهم باعتبارهم وسيلة لا غاية، وهم يُعَرَّفون فى ضوء الوظيفة التى يضطلعون بها لا فى ضوء إنسانيتهم المتكاملة. وعادةً **يعيش أعضاء الجماعة الوظيفية على هامش المجتمع** بلا ارتباط به ولا انتماء، ويقوم المجتمع فى الوقت نفسه بعزلهم عنه ليحتفظ بمتانة نسيجه المجتمعى، لذا فهم يعيشون فى **جيتو** خاص بهم فى حالة اغتراب.

نتيجة لذلك، **يشعر أعضاء الجماعة الوظيفية بعدم الأمان**، لهذا نجدهم فى كثير من الأحيان على مقربة من النخبة الحاكمة ويقومون على خدمتها

(والنخبة الحاكمة، هى التى استوردتهم فى غالب الأمر)، كذلك يقومون بالادخار ومراكمة الثروة لتُدخِل على قلوبهم شيئًا من الطمأنينة. كما إنهم عادةً ما **يحلمون بوطنهم الأصلى**، الذى يتحول إلى بقعة مثالية (**صهيون**) «يحلمون» بالعودة إليها، ولكنهم فى واقع الأمر «لا يفعلون»، وهم عادةً ما يقولون إنهم سينفقون مدخراتهم فى بلدهم الأصلى؛ حيث سيحيون حياة حقيقية تحقق ذواتهم وإنسانيتهم.

وبالمِثل ينظر أعضاء الجماعة الوظيفية للمجتمع باعتباره **وسيلة**، فما هو إلا مصدر للربح والنفع. لذا فإن عضو الجماعة الوظيفية يتسم **بازدواجية المعايير**: فهو يتعامل مع جماعته بمعيار ومع الآخر بمعيار آخر؛ فعلاقته بأعضاء جماعته قوية للغاية، إذ يعتمد على الجماعة لبقائه واستمراره، بينما تتسم علاقته بأعضاء المجتمع المُضيف بالبرود والتعاقدية والمنفعة المتبادَلة.

وتظل الجماعات الوظيفية قائمة إلى أن تظهر جماعات محلية قادرة على الاضطلاع بهذه الوظائف، **فيتم الاستغناء عن هذه الجماعة وتصفيتها**. وهذا ما حدث للجماعات اليهودية فى الغرب، إذ أصبحت جماعات وظيفية دون وظيفة (وهذا هو جوهر المسألة اليهودية فى تصورى)، فقامت المجتمعات الغربية بالتخلص منها بإرسالها إلى أرض الميعاد، فى إطار الدولة الوظيفية.

باختصار، يمكن القول أن تَركُّز الحياد والدنس والتعاقد فى جماعة بشرية هامشية يعنى أن بقية أعضاء المجتمع المُضيف يمكنهم التمتع بالدفء والتراحم، و خفض حدة التوتر الاجتماعى، والتمتع بطهره الأخلاقى والفعلى.

الثمرة السادسة عشرة بعد المائة...

الجماعات الوظيفية فى مجتمعاتنا

* بذور إدراكى لنموذج الجماعات الوظيفية

تعود أصول نموذج الجماعة الوظيفية، شأن كثير من النماذج التحليلية، إلى **تجربتى الحياتية**. وقد ساهم إدراك الفرق بين التعاقد والتراحم فى تكوين هذا المفهوم (فالجماعة الوظيفية جماعة تعاقدية لا تدخل فى علاقة تراحمية مع المجتمع). وعندما لاحظت الفروق الواضحة بين البورجوازية الريفية والبورجوازية الحضرية (بورجوازية أهل القاهرة والإسكندرية) أدركت أن موقع الإنسان الطبقى وحده لا يحدد موقفه، وأن هناك عناصر أخرى (مثل الانتماء والثقافة) تشارك العناصر الاقتصادية التأثير.

كان أهل دمنهور يتباهون بأنه لا يوجد فى مجتمعهم التراحمى أى تاجر أجنبى. وعندما انتقلت إلى الإسكندرية عام 1955، كانت تهيمن عليها جماعات اليونانيين والإيطاليين وغيرهم، إلى أن كان عام 1956 (العدوان الثلاثى) فحل محلهم المصريون. وقد لاحظت ضعف الانتماء الوطنى عند أبناء الأجانب الذين زاملتهم فى جامعة الإسكندرية، فمصر بالنسبة لهم كانت مجرد مكان يستمتعون به ويرتزقون منه.

* الجماعة الوظيفية بين المد والجذر

ومما استرعى انتباهى، أن **بعض الوظائف التى كانت هامشية** يضطلع بها الأجانب وحدهم **أصبحت وظائف محترمة** تحلم بها بنات الناس الطيبين. خذ على سبيل المثال وظيفة المُضيفة الجوية؛ حتى الستينيات وبداية السبعينيات، لم يكن أحد يذكر أن أخته أو إحدى قريباته تعمل مضيفة، وكانت المضيفات يقلن دائمًا إنهن سيعملن لسنوات قليلة ثم يستقلن، وكان نفس الوضع ينطبق على

الممثلات. وقد اختلف الأمر الآن تمامًا، فقد أصبحت وظيفة المضيفة أو الممثلة هى حلم معظم بنات الطبقة المتوسطة، وسمعت أن هناك راقصات جامعيات يُعلِنَّ عن أنفسهن بهذه الصفة ويفتخرن بها. بل إن واحدة منهن تخرجت من كلية الطب! فمثل هذه المهن أصبحت مهنًا محترمة ! ـ لا يُعهد للغرباء أو للجماعات الهامشية القيام بها ـ بسبب تزايد علمنة المجتمع وحداثته.

*** المتعاقدون والمغتربون كجماعة وظيفية:**

وقد ازداد نموذج الجماعات الوظيفية تبلورًا فى فكرى أثناء إقامتى فى الرياض. إذ يُشار إلى الأجانب أمثالى من العاملين فى البلاد الخليجية «**بالمتعاقدين**» (ويُسَمَون فى ليبيا «**المغتربين**»)، وهى اصطلاحات تصف الموقف من العاملين فى هذه الأقطار بدقة. فهم موجودون فى هذه الدول لأنها فى حاجة إلى خبراتهم، وحينما يكتسب أهل البلد هذه الخبرات، فعلى المتعاقدين أن يعودوا إلى بلادهم. فالعلاقة بين البلد المضيف والمتعاقد **علاقة تعاقدية نفعية**. وكانت بعض الجهات التى يعمل فيها المتعاقدون لا تخبرهم بتجديد عقودهم أو إلغائها إلا فى آخر لحظة، من أجل ضمان كفاءة المتعاقد وولائه، كما كان يُستغنى أحيانًا عن المهنيين ذوى الخبرة الذين يتقاضون مرتبات عالية (الأساتذة الجامعيين مثلًا) ويُستبدل بهم مهنيون حديثو التخرج بهدف التوفير (فك الواحد باثنين!) كما يقال! وهذه العبارة هى **حوسلة كاملة للمتعاقد**، أى تحويله إلى وسيلة، وتحويله من كيف إلى كم.

وكأى جماعة وظيفية يعيش كثير من المتعاقدين فى **عزلة** ولا يشعرون بأى عاطفة نحو الوطن المضيف، علاقتهم به تنتهى مع انتهاء العقد (أخبرنى أحد الزملاء الأمريكيين أنه سيبقى فى السعودية حتى آخر قطرة بترول)، ويتحدث كثير منهم عن العودة إلى بلاده الأصلية، التى تتحول فى أذهانهم إلى **أرض الميعاد**، وذلك يجعلهم يتحملون وضعهم باعتباره وضعًا مؤقتًا وحسب.

ويعيش كثير من المتعاقدين فى **ظروف معيشية مزرية** لا يمكنه أن يرضى بها فى بلده، حتى يمكنه أن يَدَخر لينفق عن سعة بعد عودته، فذاته التى يفتقدها فى مكان عمله، لا يمكن تحقيقها إلا فى وطنه الأصلى.

وقد أحببتُ السعوديين إلى درجة كبيرة، إذ وجدت بين طلبتى وفاءً وطيبة وذكاء. وفكرت مرة فى أن أرتدى **الزى السعودى** حتى لا يشعر طلبتى بأن أستاذهم مختلف عنهم، فنحن كلنا عرب ومسلمون، فحذرنى صديق سعودى من ذلك، إذ سيُعَدُّ هذا شكلًا من أشكال النفاق. وحينما تعمقت فى موضوع الرداء هذا، اكتشفت أنه ليس مجرد زى محلى وإنما هو فى واقع الأمر حاجز نفسى أقامه المجتمع (بشكل واعٍ أو غير واعٍ) بينه وبين «**المتعاقدين الغرباء**»، ففى بعض البلاد الخليجية يزيد عدد المتعاقدين على أهل البلاد، لذا يمكن أن تذوب هُوية أهل البلد إن هم اختلطوا بالوافدين.

وقد وجدت شبهًا كبيرًا بين وضع اليهود فى الحضارة الغربية (يعيشون فى البلد ولكنهم ليسوا منه) والمتعاقدين الغرباء. ومع هذا لابد أن أذكر أن **صلاة الجماعة وغيرها من الشعائر الإسلامية** التى تجمع بين المتعاقدين والسعوديين نجحت فى إزالة الفوارق ولو لبضع لحظات يمارس أثناءها الجميع إنسانيتهم المشتركة، مما كان له أعمق الأثر على العلاقة بين الفريقين.

الثمرة السابعة عشرة بعد المائة...

الدولة الصهونية كدولة وظيفية

عندما تأملت الوضع فى الدولة الصهيونية وجدت أنها تتسم بمعظم (إن لم يكن كل) سمات الجماعة الوظيفية، فأسميتها «**الدولة الصهيونية الوظيفية**». دولة أسسها الغرب لتضطلع بوظيفة محددة.

لقد استورد الاستعمار الغربى سكان إسرائيل من خارج المنطقة وغرسهم غرسًا فى العالم العربى، ثم عَرَّفهم وظيفتهم الاستيطانية والقتالية، فهى دولة تدين بالولاء لراعيها الإمبريالى، تدافع عن مصالحه نظير أن يدافع هو عن بقائها وأمنها ويضمن لمستوطنيها مستوىً معيشيًا مرتفعًا (علاقة تعاقدية نفعية). وتستخدم هذه الدولة الوظيفية **معايير مزدوجة**: أحدها لليهود والآخر للعرب، وهى دولة منعزلة عن وسطها العربى، غير متجذرة فى المنطقة، فهى فى الشرق العربى وليست منه. وحيث إن السكان الأصليين يقاومون وجودها، تحولت إلى **جيتو مسلح**.

والدولة الصهيونية ذات **نزعة حلولية واضحة**، فإسرائيل تَعُدُّ نفسها موضعًا لحلول الإله فى الأرض والشعب (فصارا مقدسين) ومن ثم صارت واحة للديمقراطية ونورًا للأمم !. لذلك فاليهود يعتبرون أنفسهم على علاقة أزلية بأرض فلسطين، أما الفلسطينيون فعلاقتهم بها هامشية.

*** أدرك اليهود دور دولتهم الوظيفية:**

حاملة طائرات، كلب حراسة، مخلب قط

لقد أدرك الصهاينة الطبيعة الوظيفية للدولة الصهيونية ولسكانها الذين تمت حوسلتهم تمامًا (أى تحويلهم إلى وسيلة ليس لها أهمية فى حد ذاتها) لصالح الغرب. وأهم وظائف الدولة الصهيونية على الإطلاق (حتى عهد قريب) هى الوظيفة القتالية (لا التجارية أو المالية)، القتال مقابل المال، أى أنها وظيفة مملوكية بالدرجة الأولى. وفيما عدا ذلك، فديباجات اعتذارية وتفاصيل فرعية.

لقد عبر هرتزل، مؤسس الصهيونية، عن مفهوم «**الوظيفة المملوكية**» بوضوح تام فى تعبيره المجازى الشهير حين قال: «سنقيم هناك (فى آسيا) حائطًا لحماية أوروبا، ويكون حصنًا منيعًا للحضارة الغربية فى مواجهة الهمجية».

وقد وصف البروفسير يشعياهو ليبوفيتس إسرائيل عام 1974 بأنها «**عميل للولايات المتحدة**» ووصف الإسرائيليين بأنهم «**كلاب حراسة للمصالح الأمريكية** فى الشرق الأوسط، ويتعلق بقاؤهم بقدرتهم على القيام بهذه المهمة». وقد طَوَّر الصحفى الإسرائيلى عاموس كينان هذه الصورة المجازية وجعلها أكثر حدة وإثارة، إذ وصف إسرائيل بأنها «**كلب حراسة رأسه فى واشنطن وذيله فى القدس**»، وهى كلب حراسة قوى لكنه يحتاج إلى حماية. ويُفَضِّل العرب استخدام اصطلاح «**مخلب القط**» كصورة مجازية لوصف الدولة الوظيفية. وهى صورة مجازية فَقَدت الكثير من قوتها بسبب تكرارها بشكل ممل، وإن كانت مُعبِّرة تمامًا.

وقد عَبَّرَ أحد المفكرين اليهود عن وضع إسرائيل بشكل معبر عندما قال: «لولا وجود إسرائيل كقاعدة ومنطقة نفوذ وحليف للولايات المتحدة لاضطرت الأخيرة إلى بناء عشر **حاملات طائرات إضافية**». وقال أخر: «إن الأمريكيين يدفعون لنا لأنهم يريدون أن تكون لهم دولة تابعة مجهزة بأفضل الأسلحة والجنود، ذلك أن دولتنا حاملة طائرات عليها أربعة ملايين نسمة فى موقع إستراتيجى فريد؛ قريب من الاتحاد السوفييتى وقريب من أوروبا الشرقية وقريب من حقول النفط».

الثمرة الثامنة عشرة بعد المائة...

معاداة العالم لليهود باعتبارهم جماعة وظيفية، وليس عداءً للسامية !.

يُمَكننا مفهـوم «الجماعة الوظيفية» من تفسير ظاهرة «العداء لليهود» («العداء للسامية» كما تُسمَّى). فالعداء لليهود يُعتبر فى حقيقته شكلًا من أشكال العداء للأقليات والغرباء والأجانب، وهو **شعور** «**كامن**» **فى النفس البشرية** فى كل المجتمعات التى تنفر من كل ما هو غير مألوف. ومادام

المجتمع مستقرًا ولكل عضو فيه وظيفته تظل هذه المشاعر فى حالة كمون ولا «تُعبِّر عن نفسها» إلا من خلال أعمال عنف وكُرْه فردية متفرقة أو من خلال أشكال من التحايل على أعضاء الأقلية أو من خلال أعمال أدبية أو قصص أو أساطير (كمسرحية تاجر البندقية).

ولكن ثمة عناصر تؤدى إلى تَحوُّل هذه المشاعر العدائية من حالة الكمون إلى «**حالة التحقق والظهور**»، فتتعدد الأفعال الفردية وتصبح ظاهرة اجتماعية. وكما كان أعضاء الجماعات الوظيفية يمثلون **سوطًا** فى يد الحاكم، يضرب به بعض طبقات المجتمع لاستغلالها أو كبح جماحها، يصبحون **كبش الفداء** الذى يتم التخلص منه عند الحاجة وأمام الهجمات الشعبية.

ويُعتَبر ما حدث فى بولندا فى أواخر القرن الثامن عشر مثالًا لهذا التحول فى المشاعر من العداء الكامن إلى الهجوم الشعبى ضد اليهود كجماعة وظيفية. فقد كان **يهود بولندا** يمثلون أغلبية يهود العالم، ثم حدث بينهم انفجار سكانى أدَّى إلى تضاعف عددهم خمس أو ست مرات، ومن ثم زاد بروزهم العددى والاقتصادى، مع تزايد فقر قطاعات كثيرة من المجتمع. ذلك فى الوقت الذى شهد فيه المجتمع البولندى بداية ظهور طبقات محلية بديلة وأجهزة قومية تحل محل الجماعة الوظيفية الوسيطة. وفضلًا عن ذلك، كان أعضاء الجماعة اليهودية يتحدثون اليديشية ويدينون بالولاء للثقافة الألمانية، بينما كان الألمان هم الأعداء التقليديين للبولنديين. وأخيرًا فإن اليهود البولنديين لم يشاركوا بشكل فعَّال فى الحركة الوطنية البولندية التى كانت ذات تَوجُّه معاد لليهود لأسباب تاريخية مركبة (من أهمها قيامهم بوظيفة جمع الضرائب وعوائد الضياع). لكل هذا (**وليس لأسباب خاصة بالجوهر اليهودى أو بأصلهم الساميّ**) تفجرت معاداة اليهودية فى بولندا وروسيا بشكل حاد.

ثانيًا: الموسوعة وتصحيح المفاهيم

(اليهود - اليهودية - الصهيونية - إسرائيل)

من المفارقات المؤلمة أن الخطاب السياسى والإعلامى العربى يتبنى الكثير من المفاهيم التى تحرص الصهيونية على تأصيلها والترويج لها! وقد قام د. المسيرى فى الموسوعة بعملية تفكيك لهذه المفاهيم حول اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل، وأوضح ما فيها من تحايل ومخالفة للحقيقة. ثم قام بعملية تركيب وتأسيس لوضع هذه المفاهيم فى إطارها التاريخى والاجتماعى والسياسى الصحيح.

الثمرة التاسعة عشرة بعد المائة...

«اكتشاف» اليهود من جديد

*** من هو اليهودى؟**

يتصور كثير من الباحثين فى الظواهر اليهودية والصهيونية أن مصطلحًا رئيسيًا مثل «يهودى» هو مصطلح محدد المعنى واضح الدلالة يشبه فى وضوحه وتحدده مصطلحًا مثل «مصرى»، مع أنهم فى إسرائيل ذاتها لا يزالون يحاولون الإجابة عن هذا السؤال! كما يتحدث الباحثون عن اليهود بصفتهم «**الشعب اليهودى**» الذى يعيش فى «**المنفى**»، كأن اليهود ينتمون إلى «تشكيل حضارى واحد»، وكأن لهم تاريخًا واحدًا ومصيرًا واحدًا ومستقبلًا واحدًا، وربما عِرْقًا واحدًا، وانتماءً ثقافيًا واحدًا، وهذا هو جوهر «**النموذج الإدراكى والتحليلى الذى يروج له الصهاينة**».

عندما أدركت الخطأ البين فى هذا المفهوم الصهيونى، بينت من خلال الدراسة المتأنية «**عدم تجانس اليهود**»؛ فهم ليسوا شعبًا واحدًا (شعب بلا أرض) وإنما هم أقليات، بعضها حقق الاندماج فى وطنه الذى يعيش فيه، وبعضها انصهر تمامًا، وبعضها يعانى من مشكلة ما فى مجتمعه. والجماعات التى لا تُكوِّن شعبًا واحدًا، لا يقال عنها إنها تعيش فى المنفى «مشتتة» (كما يدَّعى المصطلح الصهيونى).

ودليلنا على هذا المفهوم هو وجود أعضاء الجماعات اليهودية فى كل أنحاء العالم بكامل إرادتهم دون قسر أو إرغام، وإلا فبم نفسر أن غالبية يهود العالم لا تزال خارج إسرائيل، وأنه **لا يقطن فى إسرائيل سوى حوالى ربع يهود العالم؟**. بل إن يهود العالم هؤلاء قد **اكتسحتهم العلمانية**، وبدأت هويتهم تختفى من خلال تصاعد معدلات الاندماج والزواج المختلط. وقد شكا أحد الحاخامات فى أمريكا اللاتينية من أن اليهود منصرفون عن دور العبادة، وأن الفتيات اليهوديات لا يُقمن شعائر يوم السبت المقدس، بل يذهبن بدلًا من ذلك إلى البلاج مع أصدقائهن من الأغيار، مرتديات مايوهات سماها الحاخام مازحًا: مايوهات ما بعد البيكنى post-bikini (على وزن ما بعد الحداثة) نظرًا لأنها أصغر من أى مايوهات شاهدها فى حياته!.

قد يكون **اليهود منفيين بالمعنى الدينى**، وهذا يعنى أن هذه إرادة الله، لذا نجد أن **اليهودية الحاخامية تُحَرِّم العودة إلى فلسطين** إلا بعد عودة الماشيح (المسيح المُخَلِّص اليهودى الذى يعود فى آخر الزمان)، ويجب الانتظار فى صبر وأناة إلى أن يأذن الله. ومحاولة الصهاينة العودة من خلال الإرادة الإنسانية ومن خلال الإمبريالية هى ـ من منظور دينى يهودى ـ بمثابة إرغام الإله وفرض الإرادة البشرية عليه، ومن يفعل ذلك يرتكب خطيئة

«**التعجيل بالنهاية**» (وقد أكد لى ذلك صديقى الحاخام يوسف بيخر الذى يحارب الصهيونية بكل جوارحه دفاعًا عن اليهودية).

أما المتحمسون للعقيدة اليهودية من الصهاينة (أمثال بن جوريون ورابين) فلا ينظرون إلى **التوراة** باعتبارها أحد كتب اليهود المقدسة بالمعنى الدينى، وإنما هى **كتاب فلكلور الشعب اليهودى** (شأنها شأن السيرة الهلالية وألف ليلة وليلة بالنسبة للعرب)، وبالتالى فهى ليست مُلزمة أخلاقيًا، ولا تحمل أى قداسة، وإنما هى رباط عرقى يربط أعضاء الشعب بعضهم ببعض. ومن هذا المنظور صرح بن جوريون بأن خير مفسر للتوراة هو الجيش الإسرائيلى! **فالمسألة علمانية داروينية محضة، مسألة قوة عسكرية شرسة تساند ادعاءات توراتية فلكلورية لا علاقة لها بخالق أو عقيدة.**

* مفهوم الجماعات اليهودية ليسوا شعبًا يهوديًّا

إذا كانت اليهودية عقيدة دينية لها سمات معينة، واليهودى هو من يؤمن بها ووُلد لأم يهودية، فإن «**تعريف اليهودى**» لا يقف عند التعريف العقائدى، كما تفعل كل الأديان (المُسلم هو من يؤمن بالإسلام)، ولكن **التعريف يشترط أصلًا عِرْقيًّا** أيضًا، كما تفعل العقائد البيولوجية الحتمية.

وينقسم أعضاء الجماعات اليهودية إلى ثلاثة أقسام أساسية: **اليهود الغربيون** (إشكناز) **واليهود الشرقيون** (سفارد) **ويهود البلاد الإسلامية**. إلى جانب ذلك توجد جماعات هامشية لا حصر لها، من أهمها السامريون الذين لا يؤمنون بالتلمود ولا بمعظم كتب العهد القديم، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة فقط.

ومن ذلك نجد أن مصطلح «يهودى» **مصطلح عام للغاية**، وربما يظهر ذلك فى عبارة تستخدمها الإحصاءات اليهودية لتشير إلى مجموعة من الناس يُصَنفَّون على أنهم «يهود» ولكنهم ليسوا يهودًا حسب أى من التعريفات القائمة، ولذا يُشار إليهم على أنهم «**يهود بشكل ما** Jewish somehow».

لكل ما تقدم أسقطت من معجمى تمامًا مصطلحات «اليهود» و«الشعب اليهودى» على عمومها وإطلاقها، وأتحدث عنهم «**كجماعات يهودية**» ينطبق عليها ما ينطبق على غيرها من الأقليات، فى المجتمعات التى تعيش فيها.

*** مفهـوم «التاريـخ اليهـودى الواحـد»**

لعل من أهم الأفكار السائدة التى يروجها الصهاينة مفهوم «**التاريخ اليهودى الواحد**»، والذى يفترض وجود تاريخ يهودى مستقل عن تاريخ جميع الشعوب والأمم. وإذا افترضنا وجود تاريخ يهودى فعلًا. فما أحداث هذا التاريخ؟.

هل الثورة الصناعية، على سبيل المثال، من أحداث التاريخ اليهودى، أم أنها حدث ينتمى إلى التاريخ الغربى؟ إن الانقلاب الذى حدث فى طرق حياة يهود العالم الغربى ورؤيتهم للكون فى القرن التاسع عشر، لم يتم بصفتهم يهودًا، بل شملهم بصفتهم أقلية توجد داخل **التشكيل الحضارى الغربى** الذى شمل أعضاء الأغلبية وأعضاء الأقليات الأخرى. وفى المقابل، لم يتأثر **يهود العالم العربى** بالثورة الصناعية بالدرجة نفسها وفى التوقيت نفسه؛ لأن التشكيل الحضارى العربى كان بمنأى عنها فى بداية الأمر، لكن بعد نحو قرن من الزمان، بدأ هذا التشكيل يتأثر هو الآخر بالثورة الصناعية، أما **يهود إثيوبيا**، فلم يتأثروا به إلا على نحو سطحى؛ لأن المناطق التى يعيشون

فيها ظلت بمنأى عن هذه التحولات الكبرى، وبقيت ذات طابع قَبَلى حتى الوقت الحاضر. ومن ثَم يمكن القول بأن معدل تأثر اليهود بالثورة الصناعية إنما هى **مسألة مرتبطة بكونهم أعضاء فى مجتمع ما**، فإذا تأثر هذا المجتمع بالثورة الصناعية فإن أعضاء الجماعات اليهودية يتأثرون بها بالمقدار ذاته. ومعنى ذلك أن هناك «**تواريخ**» للجماعات اليهودية لا تاريخًا يهوديًّا واحدًا.

*** مفهوم «الهُوية اليهودية» و «الشخصية اليهودية»**

هل «يهودية اليهودى» مسئولة عن عبقريته... أو إجرامه؟

إن الحديث عن «**الهوية اليهودية**» و«**الشخصية اليهودية**» هو حديث صهيونى عنصرى (معادٍ لليهود !)، كما إنه معادٍ للحقيقة؛ إذ ينزع عن اليهود إنسانيتهم ويحولهم إلى شياطين رجيمة. وقد قمنا **بتفكيك هذه المفاهيم**، وبيَّنا أن اليهود فى أنحاء العالم ليسوا كتلة متماسكة، **وأنهم فى حالة صراع، وأن لهم مصالح متضاربة**، وأنهم جزء لا يتجزأ من التشكيلات الحضارية التى يعيشون فى كَنَفها، يتفاعلون معها تأثيرًا وتأثرًا؛ فمجتمع الأغلبية يقوم بتحديد سلوكهم كأقلية، بل وصياغة رؤيتهم ولغتهم وفنونهم وتراثهم نفسه.

ثم انتقلنا بعد ذلك إلى **مرحلة التركيب والتأسيس** وطرحنا من خلالها نموذج «**الجماعات اليهودية**»، بدلًا من مصطلح «اليهود» المطلق العام.

لذلك نرى أن الحديث عن «**العبقرية اليهودية**» فيه شطط، كما أن الحديث عن «**الجريمة اليهودية**» لا يقل عنه شططًا. فإن كانت **يهودية اليهودى** هى المسئولة عن «عبقريته»، فلِمَ لَمْ يظهر كافكا أو أينشتاين بين يهود الفلاشاه؟ وإذا كانت يهودية اليهودى مسئولة عن «إجرامه» فلِمَ لَمْ يظهر تنظيم مافيا يهودى فى اليمن (كما حدث بين يهود الولايات المتحدة فى الثلاثينيات؟).

إن دراسة المؤسسات والظواهر اليهودية يجب أن تبدأ بدراسة المجتمع الذى يعيش أعضاء الجماعات اليهودية بين ظهرانيه (النظر من **الخارج**) بدلًا من النظر إليهم من **الداخل** وكأنهم كيان سياسى وحضارى مستقل.

الثمرة العشرون بعد المائة...

«اكتشاف» حقيقة الإبادة النازية لليهود

ينبغى وضع الإبادة النازية ليهود أوروبا فى سياق الحضارة الغربية باعتبارها **حضارة إبادية لا تتردد فى إزالة الآخر من طريقها** (فالآخر من الناحية العرقية يشغل مكانة أدنى، لذا لا يستحق الحياة). ويؤكد ذلك وقائع الإبادة المختلفة فى التاريخ الغربى الحديث، ابتداءً من إبادة الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية (فى القرن السادس عشر) حتى فيتنام والبوسنة فى القرن العشرين.

وكان **هتلر** نفسه يبدى إعجابه بالمستوطنين الأمريكيين البيض وطريقة «معالجتهم» لقضية الهنود الحمر، وكان يشير إلى أوروبا الشرقية التى يبغى ابتلاعها بحسبانها «أرضًا عذراء» أو «صحراء مهجورة»، تمامًا كما يتحدث الصهاينة عن «أرض بلا شعب» وعن فلسطين بحسبانها «صحراء ومستنقعات». وقد بيَّن ألفريد روزنبرج، أحد أهم الزعماء والمنظرين النازيين، أثناء محاكمته فى نورمبرج «**إن نظرية التفاوت بين الأعراق هى جزء لا يتجزأ من الفكر الغربى**. وأن رؤيته العرقية بتفوق الجنس الأبيض (السوبر مان) هى نتيجة أربعمائة عام من البحوث العلمية الغربية».

لذلك فإن **الإبادة لم تَطُل اليهود وحدهم**، وإنما طالت العجزة والأطفال والمعوَقين والشيوعيين والغجر وأعضاء النخبة البولندية وأسرى الحرب،

بل وأحيانًا الجرحى الألمان، أى أنها **جزء من موقف نازى عام، ليس موجهًا ضد اليهود وحدهم**، وإنما كان موجهًا ضد الآخر (أى آخر) الذى قد يقف فى طريق النازيين.

كما كَشَفَت الموسوعة عن كثير من حقائق **التعاون بين النازيين والصهاينة!** مما أنقذهم من الإبادة، ولهذا قال أحد المعلقين: إذا كان هرتزل هو ماركس الصهيونية (أى مُنَظِّرها)، فإن هتلر هو لينينُها (أى من حَوَّل النظرية إلى واقع سياسى !).

وفى ضوء هذا الطرح، فإن قضية «**الهولوكوست**» تتحول من مجرد إثبات أو إنكار، إلى بحث فى أسباب اختفاء ستة ملايين يهودى (إن صدق الرقم). فهل اختفى مَن اختفى مِن خلال أفران الغاز أم أن هناك أسبابًا أخرى مثل تناقص عدد اليهود منذ بداية القرن الحالى من خلال الزواج المختلط والتنصر والإحجام عن الزواج والنسل؟ وماذا عن الأوبئة والمجاعات والغارات أثناء الحرب؟ وماذا عن هؤلاء الذين حصلوا على شهادات تعميد من الكنيسة حتى يمكنهم الهروب من النازى؟ كل هؤلاء اختفوا وحُذِفت أعدادهم، ولكن ليس من خلال أفران الغاز.

الثمرة الحادية والعشرون بعد المائة...

«اكتشاف» الديانة اليهودية من جديد

* ديانات يهودية متعددة

تحوى اليهودية داخلها منذ بداياتها **تناقضات عميقة بخصوص بعض القضايا الجوهرية**. فمفهوم الإله فى العهد القديم يختلف من جزء إلى جزء

ومن سِفر إلى سِفر، كذلك فإن أسفار موسى الخمسة التى تُعَدُّ أهم كتب التوراة لا توجد فيها أى إشارات للبعث أو اليوم الآخر، بينما نجد أن هناك إشارات محددة لهذه المعتقدات فى الأسفار الأخرى.

كذلك **لم يتم تحديد أصول الدين اليهودى بدقة منذ البداية**، ومن ثم تطورت كل جماعة يهودية على نحو مستقل عن بقية الجماعات، سواء من الناحية الثقافية أو الدينية، وأصبح لكل جماعة آراؤها التى لا تقل شرعية عما يُسمَّى بالتيار الأساسى فى اليهودية. لذا عندما تم تعريف أصول الدين اليهودى فى مرحلة متأخرة (على يد موسى بن ميمون تحت تأثير الحضارة الإسلامية) كان ذلك أمرًا عديم الجدوى لأن **اللامعيارية** كانت قد تأصلت كجزء أساسى من اليهودية.

لكل هذا نجد أن ثمة صراعًا عميقًا يدور بين الرؤيتين الأساسيتين فى اليهودية؛ **الرؤية التوحيدية التقليدية والرؤية الحلولية** المسيطرة على الفكر الصهيونى. وقد تصاعد هذا الصراع وصُفِّى بالتدريج لصالح الحلولية، حتى أن تفسيرات وشروح الحاخامات (التلمود) حلت محل الشريعة الأصلية (التوراة). ووصل هذا الاتجاه إلى ذروته فى كتب «القبَّالاه» وهى كتب الصوفية الحلولية اليهودية التى توحد بين الإله وبين الشعب اليهودى والأرض اليهودية، أى فلسطين.

والتلمود كتاب ضخم يبلغ سبعة عشرة مجلد فى ترجمته الإنجليزية، وكُتب **على مدار ألف عام** ويضم شروحات الحاخامات للتوراة وفتاواهم، ويتناول أدق تفاصيل الحياة بالنسبة لليهود، وقد تزايدت أهميته ومركزيته حتى أصبح يحتل مكانة تفوق مكانة التوراة.

لقد جعلت هذه الأشكال الكثيرة من اليهودية عبر التاريخ، من الصعب على الباحث أن يتحدث عن «**يهودية معيارية**». فنجد اليهودية القربانية القديمة التى تدور حول الهيكل وطبقة الكهنة، واليهودية الحاخامية التى نشأت بعد سقوط الهيكل، ويهودية عصر ما بعد الاستنارة (القرن الثامن عشر) حين حاول البعض إصلاح اليهودية فقاموا بعلمنتها، وقد صحب ذلك استيلاء الصهيونية على اليهودية. ثم أخيرًا ظهور اليهودية الإلحادية (يهودية عصر ما بعد الحداثة) بما تتميز به من لاهوت موت الإله، وإعلان الانتصار النهائى للحلولية والوثنية والحواس الخمس. ومع هذا، فإن كل هذه العقائد والمذاهب سُمِّيت «يهودية»، وسُمِّى أتباعها «يهودًا»!

* اليهودية من خلال النموذج التحليلى التراكمى بدلًا من النموذج العضوى

أثبتنا فيما سبق خطأ النموذج التحليلى العضوى، الذى ينظر للعقيدة اليهودية باعتبارها نسقًا واحدًا، ويرى أن اليهود يشكلون كتلة بشرية متجانسة، واستخدمتُ محله نموذجًا تراكميًا (كما رأينا). لقد انتهى الأمر بأن أصبح يهود العالم ينقسمون من الناحية الدينية فى الوقت الحاضر إلى قسمين أساسيين: **يهود إثنيون (علمانيون)**، وهؤلاء فقدوا كل علاقتهم بالعقيدة اليهودية والموروث الدينى، وهم يرون أن يهوديتهم تكمن فى إثنيتهم، أى فى أسلوب حياتهم وموروثهم الثقافى. **ويهود متدينون**، وهؤلاء يؤمنون بصيغة ما من صيغ العقيدة اليهودية، ويمثلون مذاهب عديدة غير متجانسة فقد بعضها علاقته باليهودية التقليدية التى تُسمى اليهودية الحاخامية أو الأرثوذكسية.

إن الخلافات بين هذه المذاهب من العمق بحيث إن أحد الحاخامات الأرثوذكس صرح عن حق بأن هناك يهوديتين: يهودية الإصلاحيين والمحافظين واليهودية الأرثوذكسية. وبالفعل، فلنتخيل حاخامًا أرثوذكسيًّا يعرف أن التوراة تُحرِّم الشذوذ الجنسى، ثم يسمع أن اليهودية الإصلاحية لا تبيحه وحسب، بل وتقبل عقد الزيجات بين أفراد من نفس الجنس، وأنه تم عقد زواج بين رجلين يهوديين أمام حائط المبكى !.

وإذا كان من الممكن تجاهل حالة عدم التجانس هذه قبل تأسيس الدولة الصهيونية، **فبعد عام 1948** وتجميع أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة فى فلسطين المحتلة حدثت المواجهة وتفجرت أسئلة عديدة لا تزال تبحث عن أجوبة: من هو اليهودى؟ ما اليهودية؟ ما هوية الدولة التى تسمى نفسها «يهودية»؟، هل هى دينية أم علمانية؟ وإن كانت دينية، أهى إصلاحية أم محافظة أم أرثوذكسية؟.

الثمرة الثانية والعشرون بعد المائة...

«اكتشاف» الصهيونية من جديد

* البعد المعرفى والفكرى الغربى والصهيونى

إن جوهر الفكر الغربى العلمانى الشامل فى القرن التاسع عشر هو البحث عن «مُطلق مادى» يمكن عن طريقه تفسير كل الأشياء والظواهر. هذا المطلق هو صراع الطبقات ووسائل الإنتاج عند ماركس، وهو الجنس عند فرويد، وهو مبدأ المنفعة عند بنتام وهكذا.

وهذا ما فعلته الصهيونية، فقد استعارت «**مفهوم العودة**» ثم حولته إلى مطلق علمانى مادى شامل يتحقق فى عالم المادة. فاليهودى ـ حسب التصور

الصهيونى ـ هو فرد فى شعب مرتبط عضويًا بأرض الوطن، يشعر دائمًا برغبة عارمة وإحساسًا غريزيًّا بضرورة العودة.

ويذهب الصهاينة إلى إن على اليهودى أن يرفض عملية الانتظار السلبى للعودة (انتظارًا لمشيئة الخالق) التى فرضها عليه الحاخامات، بل عليه أن يحمل السلاح بطريقة علمانية عصرية حديثة لتحقيق العودة الإستيطانية المسلحة، لا بد من **العودة إلى فلسطين واغتصابها**، فالبقاء للأصلح بقوة السلاح على الطريقة الداروينية النيتشوية، ولذا فقوة السلاح هى المعيار النهائى.

إن الخطاب الصهيونى يتسم بأنه خطاب حلولى عضوى يستبدل بالإله الأمة (الأرض والشعب) ويخلع عليها كل صفات الإله.

*** حقيقةالصهيونية كصورة من الإمبريالية الغربية... بل تزيد**

تتجلى حقيقة الحركة الصهيونية فيما يلى:

1 - إن الصهيونية ـ فى تصورى ـ **ليست جزءًا من العقيدة اليهودية**، وإنما هى **تطبيق إمبريالى للعلمانية الشاملة**.

2 - من المعروف أن **مؤسسى الحركة الصهيونية كانوا ملاحدة**، حتى إن الحاخام الذى جاء لعقد زواج هرتزل غادر دون أن يكمل مهمته لأنه وجد أنه لا يمكن أن يَعُدُه يهوديًّا. كذلك كان المستوطنون الصهاينة فى الثلاثينيات يقومون بمظاهرة فى يوم كيبور (أكثر الأيام قداسة) ويسيرون أمام حائط المبكى (أكثر الأماكن قداسة) ليأكلوا ساندويتشًا من لحم الخنزير، إعلانًا عن تخلصهم من موروثهم اليهودى. بل إن «الدولة اليهودية» ذاتها كانت ستسمى «الدولة العبرية» حتى يتم الابتعاد عن كلمة «يهودية» الكريهة (فى تصور مؤسسى هذه الدولة).

3- **ينزع الصهاينة القداسة** عن كل شيء **ويلغون تاريخ** فلسطين والفلسطينيين بل ويهود العالم، ويوظفون الجميع لتحقيق أغراضهم.

4- ليست الصهيونية مجرد صورة من صور الإمبريالية الغربية، وإنما هى **حركة استيطانية إحلالية تَمَّت فى كنف الإمبريالية الغربية** وتحت مظلتها. فقد قامت هذه الإمبريالية بنقل كتلة بشرية من أوروبا وتوطينها فى فلسطين لتحل محل سكانها الأصليين. وقد اعتمد بلفور فى إنجازه للمشروع الصهيونى على إعلان رغبته فى «**تخليص أوروبا من اليهود**»، وهو بذلك يشبه هتلر، فكلاهما كان يود تحقيق هذا الهدف. ولكن على حين تخلص بلفور منهم بإرسالهم إلى مستعمرات الإمبراطورية الإنجليزية (فلسطين)، قام هتلر بالتخلص منهم بإرسالهم إلى معسكرات الاعتقال والغاز، بعد أن فشل فى التخلص منهم بالطريقة البلفورية عن طريق تهجيرهم إلى موزمبيق. ولذلك **يمكن فهم الفكر الصهيونى بشكل أعمق إن اعتبرناه جزءًا من الفكر الغربى المادى** (الداروينية ومسئولية الرجل الأبيض، وتحويل العالم كله بمن فيه من بشر إلى مادة استعمالية).

5- والصهيونية بطبيعة تكوينها **ذات ميول توسعية** (وطن اليهود القومى من النيل إلى الفرات).

6- تعطى الصهيونية **كحركة عنصرية** كل الحقوق لأعضاء الكتلة البشرية الوافدة وتنكرها على السكان الأصليين.

7- والصهيونية فى المقام الأول **حركة إبادية** تدعى أن أرض فلسطين أرض بلا شعب.

8- نجحت الصهيونية فى **تمرير خطاب مراوغ**؛ بحيث أرسلت الإشارات إلى يهود العالم تخبرهم بأنها حركة لتهجير لا كل اليهود وإنما بعضهم وحسب (لإبقاء الأثرياء والمندمجين فى بلادهم).

9- وقد فَرَّقْت بين ما أسميه «**الصهيونية التوطينية**» (فى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية) و«**الصهيونية الاستيطانية**» (فى أوروبا الشرقية). فالصهيونية التوطينية تغذى الحركة الصهيونية بالتبرعات والدعم السياسى ولكنها لا ترسل قط بمستوطنين (لأن يهود الغرب مندمجون فى مجتمعاتهم مستريحون تمامًا فيها)، أما الثانية فهى المصدر الأساسى والوحيد للمادة البشرية الاستيطانية. ويبدو أن معين هذه المادة البشرية الاستيطانية (فى أوروبا الشرقية) قد نضب.

10- وفى نفس الوقت **حافظت الصهيونية على عباءتها «اليهودية»**. فنْقل الكتلة البشرية أطلقت عليه «عودة اليهود» إلى أرض أجدادهم التى يرتبطون بها برباط مقدس لا تنفصم عراه رغم تغير الزمان والمكان (الحلولية اليهودية). وبعد تأصيل هذه الفكرة تتغير الديباجات: فالعودة هى عودة لإقامة حكومة العمال والفلاحين (عند مخاطبة الاشتراكيين الثوريين)، أو لإقامة دولة ديمقراطية (بالنسبة للديمقراطيين)، أو تحقيقًا للوعد الإلهى (بالنسبة للمتدينين). الديباجات وحدها تتغير، أما فعل النقل الاستعمارى الاستيطانى الإحلالى ذو العباءة اليهودية، فثابت لا يتغير.

11- إن العلاقة متوترة بين الدولة الصهيونية ويهود العالم! فالدولة الصهيونية تود توظيفهم لحسابها، وهم يخشونها، وفى نفس الوقت يودون أن تظل حياتهم فى أوطانهم مستقرة كاملة غير منقوصة. وقد

نتج عن ذلك ما سميناه «**التملص اليهودى من الصهيونية**»، وهو أن يعلن اليهودى ولاءه الكامل للصهيونية ودولتها، ولكن سلوكه لا يعكس هذا الولاء.

*** اللوبى الصهيونى يخدم الإستراتيجية الأمريكية، وليس العكس**

من الأساطير الأساسية المسيطرة على الخطاب السياسى أسطورة «**أن الصهاينة، يسيطرون على صنع القرار فى الولايات المتحدة من خلال اللوبى الصهيونى**»، وأن الولايات المتحدة، بالتالى، ضحية مسكينة يتلاعب بها الصهاينة اليهود.

إن الكثيرين ينسون أن **الدولة الصهيونية استثمار إستراتيجى مهم بالنسبة للولايات المتحدة** التى هى قوة إمبريالية عظمى ولها مصالحها التى تحاول تحقيقها وحمايتها بأى ثمن. لقد **اختارت الإستراتيجية الإمبريالية المواجهة المستمرة مع العالم الإسلامى** بدلًا من التصالح أو التعاون معه (وإلا لما قضت أوروبا على محمد علىّ، ولما تم وضع اتفاقية سايكس بيكو لتقسيم العالم العربى، وقد استفحل الأمر بعد تفتت الاتحاد السوفييتى وبعد أحداث 11 سبتمبر)، وهذا القرار قد يكون لا عقلانيًا من وجهة نظرنا، ولكن من قال إن القرارات الإستراتيجية العليا تكون «عقلانية»؟! لذلك فإننى أرى أن **قوة اللوبى الصهيونى** (أى جماعات الضغط الصهيونية التى تحاول أن تؤثر فى القرارات التى تتخذها الإدارة الأمريكية) **تنبع من تبعيته للإستراتيجية الغربية وليس العكس**. ومن ثم فإننى أؤمن تمامًا أن السياسة الإمبريالية للولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط ما كانت ستتغير بشكل جوهرى لو اختفى اللوبى الصهيونى (بل والحركة والدولة الصهيونية).

إن المدافعين عن نظرية اللوبى لا يدركون أن نجاح هرتزل لا يكمن فى أنه جند اليهود (فمعظم أعضاء الجماعات اليهودية كانوا ضده)، وإنما لأنه اكتشف الإمبريالية كآلية لتنفيذ المشروع الصهيونى. لهذا طلب من جوزيف تشامبرلين، وزير المستعمرات البريطانى، **قطعة أرض لا يقطنها الإنسان الأبيض** (لا يهم بطبيعة الحال إن كانت مأهولة بالسكان الأصليين) لتكون مكانًا لإنشاء الدولة الصهيونية.

إن قرار الولايات المتحدة بدعم إسرائيل يستند إلى حسابات دقيقة؛ فالولايات المتحدة تعطى الدولة الصهيونية ما يقرب من عشرة بلايين دولار سنويًا، لحماية المصالح الغربية الأمريكية والأمن الأمريكى. ولو اضطرت إلى أن تقوم بهذه المهمة دون اللجوء إلى وسيط، لوجدت نفسها مضطرة إلى أن تُبقى خمس حاملات طائرات فى حوض البحر الأبيض المتوسط بشكل دائم، وهذه تُكلف حوالى خمسين بليون دولار. **إن الدولة الصهيونية صفقة إستراتيجية رابحة بالنسبة للولايات المتحدة**، قاعدة عسكرية منخفضة التكاليف، الأمر الذى يحرص المتحدثون الإسرائيليون على إظهاره، ولا يملون من تكراره للحصول على المزيد من الدعم.

هذا لا يعنى بطبيعة الحال إنكار دور اللوبى الصهيونى، فهو لوبى منظم وقوى، ولكنه يتحرك فى إطار الإستراتيجية العامة السابقة، ومن ثم لا يمكن الحديث عنه بحُسبانه المُحَرِك، وإنما هو عنصر مساعد داخل إطار قد تحدد من قبل.

*** الصهيونية مصطلح فقد معناه السياسى والاجتماعى**

أصبحت كلمة صهيونية فى الخطاب الأدبى تعنى «**كلام مدع أحمق**» (الجيروساليم بوست 26 أبريل سنة 1985)، وتحمل أيضًا معنى «**التباهى**

بالوطنية بشكل علنى مبالغ فيه»، وتدل على «**الاتصاف بالسذاجة الشديدة فى حقل السياسة**» (الإيكونومست 21 من يولية سنة 1984).

وكما ذكرت، يُنظر إلى الصهاينة باعتبارهم مجموعتين من البشر: صهاينة الخارج «**الصهاينة التوطينيون**» الذين يدعمون بالمال ويحضرون إلى إسرائيل وكأنها مكان سياحى (فندق صهيون على حد قول أحد الكُتاب الإسرائيليين)، ويحبون أن يسمعوا الخطب الساذجة التى لا علاقة لها بالواقع والمليئة بالادعاءات الحمقاء والتباهى العلنى بالوطنية. والمجموعة الثانية هم «**الصهاينة الاستيطانيين**» المقيمين فى إسرائيل والذين يعرفون أن عليهم إلقاء خطب جوفاء ومبالغات لفظية لا معنى لها، حتى يجزل لهم الضيوف العطاء.

وتُستخدم الآن عبارة «**أعطه صهيونية**» بمعنى فلتتفوه بكلام ضخم أجوف لا يحمل أى معنى، فهو صوت بلا معنى وجسد بلا روح ودال بدون مدلول. كما نقول بالعامية المصرية: «هَجَّص»، فالمسألة «هجص فى هجص». ويمكن أن نضيف لزيادة الدلالة «والأرزاق على الله». أو فلنجعل العبارة علمانية ونقول: «والأرزاق على الولايات المتحدة ويهود المنفى».

الثمرة الثالثة والعشرون بعد المائة...

«اكتشاف «إسرائيل من جديد

* دولة استعمارية استيطانية إحلالية، لا علاقة لها بالتوراة والتلمود

أكدت الموسوعة أن إسرائيل ليست دولة يهودية، وأن الادعاء الصهيونى بأنها تنبع من التوراة والتلمود والتطلع اليهودى الأزلى للعودة لا أساس له

من الصحة. إن إسرائيل فى واقع الأمر دولة استعمارية استيطانية إحلالية، ولا يمكن فهم حركياتها وآلياتها إلا فى هذا الإطار. لذا لا ينبغى دراسة إسرائيل فى علاقتها بسِفْر الخروج، بل ندرسها فى إطار استيطان الإنسان الأبيض فى الأمريكتين ونظام التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا.

*** من شابه أباه فما ظلم**

تتميز إسرائيل بكل ما يُميز الدول الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية:

- لا يخضع المجتمع الإسرائيلى لقوانين متميزة تعبر عن الجوهر اليهودى أو التاريخ اليهودى، وإنما **يخضع للقوانين التى يخضع لها معظم أعضاء الجيوب الاستيطانية**، مثل الإحساس بعدم الأمن ومحاولة إنكار تاريخ السكان الأصليين والرغبة فى التخلص منهم مع الشهوة المتزايدة للتوسع والاستيلاء على أراضى الآخرين.

- يعانى الإسرائيليون من **عدم التجانس وعوامل التفرقة** التى تنخر فى المجتمعات الاستيطانية، ومن مظاهرها: الصراع الدينى - العلمانى، والصراع العرقى (سفارد - إشكناز - جماعات أخرى كثيرة)، والأزمة الاستيطانية (تزايد عدد العرب وثبات عدد الإسرائيليين أو تزايدهم بنسبة أقل - إحجام يهود العالم عن الهجرة).

- يخضع الإسرائيليون للمفاهيم التى يخضع لها **أعضاء المجتمعات الغربية الاستهلاكية** (التمركز حول الذات والتوجه الشديد نحو اللذة - التركيز على المصلحة الاقتصادية المباشرة - تراجع النزعة التقشفية والقتالية).

*** إسـرائيل من خلال نموذج الحلـوليـة الماديـة**

عندما طبقتُ نموذج الحلولية (وَحْدة الوجود المادية) على الصهيونية وإسرائيل، وجدت أن الحلولية اليهودية هى الإطار الذى يتحرك فيه الصهاينة العلمانيون والدينيون، فالكل يرى أن **القداسة تسرى فى الشعب والأرض**. (ولا يهم أن تكون القداسة ذاتية فى الشعب والأرض كما يقول العلمانيون، أو نتيجة لحلول الإله فيهما كما يقول المتدينون) فتسمية مصدر القداسة ليست أمرًا مهمًا فى المنظومات الحلولية.

ويختلف **التعبير عن هذه القداسة** من مذهب لآخر، فالدينيون يقولون إن روح الإله وروح يسرائيل شىء واحد، أى أن الشعـب فى قداسـة الرب، وهذا لا يختلف كثيرًا عن قول العلمانى الملحد إن الشعب اليهودى هو ربه، أو عن قول موشيه ديان إن الأرض هى ربه. فالصياغات كلها تنتهى إلى شعب مقدَّس له حقوق مطلقة فى أرضه المقدَّسة.

*** هكذا اتضحت الرؤية**

وانطلاقًا من هذه الرؤية تبنيت **نظامًا تصنيفيًّا جديدًا**، فالكيبوتس (أو ما أُسَميه المزارع المسلحة) ليس مجرد تعبير عن عقلية الجيتو، وإنما هو ضرورة أمنية لكتلة بشرية استيطانية وافدة قامت بالاستيلاء على الأرض وطرد سكانها الأصليين. والهستدروت ليس مجرد اتحاد نقابات عمال وإنما مؤسسة استيطانية تهدف إلى تنظيم أعضاء الكتلة الوافدة فى مجابهة السكان الأصليين.

إن هذا التناول يحل كثير من **إشكاليات الخطاب التحليلى العربى** حول الصهيونية، خاصة وأن نزع فكرة اليهودية عن إسرائيل وتأكيد جوهرها

الاستعمارى الاستيطانى الإحلالى يعنى أن الصهاينة «**محتلون**» وليسوا «عائدين». ومن ثم فإن فلسطين هى وطن الفلسطينيين وليست أرض الميعاد، وأن رفض الفلسطينيين لهذا الجيب الاستيطانى وحربهم ضده ليس إرهابًا وإنما **مقاومة** وجزء من حركة التحرر الوطنى.

ثالثًا: معاداة اليهود واليهودية

الثمرة الرابعة والعشرون بعد المائة...

معاداتنا لليهود واليهودية، قرة عين الصهيونية

* لا تضع يدك فى يد الصهيونية وأنت لا تدرى

ينحى الخطاب التحليلى العربى حول المفاهيم الخاصة باليهود والصهيونية منحنيين متناقضين؛ فهو إما يميل إلى **التعميم الشديد** («الصهاينة ليسوا إلا عملاء للاستعمار» و«إسرائيل ليست إلا كذا») وإما إلى **التخصيص التآمرى الشديد** («اليهود مختلفون عن البشر» – «هذه طبيعة اليهود عبر الزمان والمكان»).

يتبنى الكثيرون من الكُتَّاب العرب مفهومًا يفترض أن اليهود يُكَوِّنون شعبًا واحدًا متجانسًا ذا مصالح مشتركة وأنهم يشكلون وحدة مستقلة عما حولهم، ومن ثم فإن لهم خصوصيتهم اليهودية التى تتبدى فى طعامهم وشرابهم وزيهم ولغتهم ومؤسساتهم السياسية... إلخ. إن أصحاب هذا المفهوم يتبنون نموذجًا «**يعادى اليهود واليهودية**»، باعتبار أن الدولة الصهيونية دولة يهودية نبعت من التوراة والتلمود (وهذا ما يحرص الفكر الصهيونى على تأصيله والترويج له)، متجاهلًا مجموعة كبيرة من التفاصيل

والمعلومات والحقائق. بل ويتجاهل المعادون لليهود واليهودية كل ما ذكرناه من حقائق حول إعادة اكتشاف المفاهيم الخاصة باليهود والصهيونية، ويكررون أنه مهما ادعى اليهودى أنه انسلخ عن اليهودية، فهو يظل فى أعماق أعماقه يهوديًّا، بل وصهيونيًّا، فمن وُلد يهوديًّا يظل يهوديًّا، ومن ثَمَّ صهيونيًّا طيلة حياته!.

هذا وقد أفرز تبنِي نموذج «العداء لليهود واليهودية» **ثلاثة مفاهيم خاطئة:**

- اليهود أصحاب قدرات خارقة.
- هناك مؤامرة يهودية قديمة للسيطرة على العالم.
- إذا أردنا فهم المؤامرة اليهودية فلنقرأ كتبهم المقدسة.

وسنناقش هذه الشِراك الصهيونية فى الثمرات التالية.

الثمرة الخامسة والعشرون بعد المائة...

كأنهم يُضمرون أحقاد شيلوك، ويملكون قدرات نبى الله سليمان عليه السلام

*** ليسوا عباقرة ولا شياطين**

يحمل «نموذج معاداة اليهود واليهودية»من الضرر أكثر مما يحمل من الفائدة. فأصحاب هذا النموذج يعتقدون أن عداءنا لإسرائيل يرجع إلى نزعة اليهود الشيطانية، ومن ثم ينبغى استغلال هذا النموذج فى تخويف الجماهير وتوليد العداء للعدو الصهيونى وفى تجنيدها ضده. ولكن واجهتنا حقيقة مُرَّة؛ وهى أن الناس قد يُصَدِّقون ما يرددونه! وهو أن اليهود شياطين؛ **قوة**

لا تُقهر (مثل جيش الدفاع الإسرائيلى)، وأنهم يحكمون العالم، وأن أياديهم الخفية موجودة حقًا فى كل مكان.

إن هذه الرؤية تحول اليهود إلى عباقرة أو شياطين. فإن كانوا شياطين، فنحن لا نملك إلا الاستعاذة منهم بالله أو الفرار أو الاستسلام. وأما إن كانوا **شعبًا من العباقرة**، يدهم الخفية متحكمة فى العالم بأسره، فبطبيعة الحال لا قِبَل لنا بمحاربتهم. وبذا **يؤدى نموذج العداء لليهود إلى السلبية والاستسلام والهزيمة، فيخرج بعدونا من الإطار البشرى** ويُسَوِّغ الهزيمة التى أُلحقت بنا مرارًا.

بذلك يخدم المعادون لليهود واليهودية الصهيونية **خدمات عظيمة مجانًا!** وكما قال يوئيل ماركوس فى جريدة هاآرتس (31 من ديسمبر عام 1993): «إن **بروتوكولات حكماء صهيون** تبدو كأن الذى كتبها ودسَّها لم يكن شخصًا معاديًا لليهود، بل كان صهيونيًّا ذكيًّا يتسم ببُعد النظر. يشير بذلك إلى أثرها فى تخويف الناس من اليهود بشكل عام، بحيث يهابون الحرب قبل دخول المعركة. لذلك كان هرتزل يتحدث عن «**أصدقائنا أعداء اليهود**». **وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «نُصرت بالخوف مسيرة شهر»**، وبدلًا من أن نستخدم الخوف كسلاح وقعنا فى شِرَاكه.

*** لا بد من أنسنة اليهود حتى نفاوضهم أو نقاتلهم**

نحمد الله أن جميع من يتحرك فى أرض الممارسة الحقيقية (المفاوضون والمجاهدون الفلسطينيون) يرفضون النظر لليهود بحُسبانهم شياطين؛ لأنهم لو وقعوا فى هذا الفخ لأصبح التفاوض مستحيلًا (إلا من منظور الاستسلام بطبيعة الحال) ولأصبح الجهاد أكثر استحالة. إن **المفاوضين**

والمجاهدين يقومون **بأنسنة اليهود**، أى تحويلهم إلى بشر خاضعين لعوامل الزمان والمكان. هذا على عكس بعض أعضاء **النخبة الحاكمة العربية** الذين يؤمنون فى قرارة أنفسهم بأن «اليهود» قوة عظمى تمسك بمقاليد الأمور، وأنه لا بد من «التفاهم» معهم، إذ لا قِبَلَ لنا بهم.

ويتصور البعض أن «**أنسنة اليهود**» تعنى «تبرئة ساحتهم والتعاطف معهم» وهذا خلل ما بعده خلل. أما بخصوص **تبرءة ساحتهم**، فهذا يفترض أن الصراع عبارة عن مرافعات، وأننا يجب أن نحاكم الصهاينة لا أن نقاتلهم، وهو أمر أبعد ما يكون عن الحقيقة. وأما فكرة **التعاطف مع اليهود** فيدحضها فهم ما جاء فى الذكر الحكيم ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء 104].

ولعل ما قاله مارك توين عن اليهود يلخص رأيى بدقة بالغة: «**اليهود بشر، ولا يمكننى أن أقول ما هو أسوأ من ذلك عنهم!**». فالاستعمار والعنصرية والاستغلال والشر ظواهر إنسانية، بمعنى أنها كلها نابعة من صميم وجودنا الإنسانى، لذا يمكن رصدها وفهم وتفسير معظم جوانبها. والفهم والتفسير يختلفان عن التعاطف والتقبل، وهما ضروريان للتعامل مع الواقع وتغييره.

الثمرة السادسة والعشرون بعد المائة...

نظرية المؤامرة اليهودية

يؤدى تبنى نموذج «العداء لليهود واليهودية» إلى ما يُعرف بـ«**نظرية المؤامرة اليهودية**». وهذا النموذج يضع اليهود، كل اليهود، فى سلة واحدة،

ويعتبر كل الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية شيئًا واحدًا، باعتبار «**الجميع يهود والسلام**». ثم ينظر النموذج إلى اليهود باعتبارهم شخصيات مخربة هدامة دائمًا وأبدًا، تتآمر بطبيعتها ضد كل ما هو خَيِّر ونبيل، وأنهم مسئولون عن كل الشرور. ويرى هذا النموذج أن سلوك اليهود يُعبر عن **مخطط جبار وضعه العقل اليهودى** لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس، حتى تزداد كل شعوب العالم ضعفًا ووهنًا بينما يزدادون قوة وبأسًا، وذلك بهدف السيطرة على العالم. والعالم كله ـ حسب هذا التصور ـ ليس إلا **رقعة شطرنج**، وكل البشر ليسوا إلا أحجارًا عليها يحركها اليهود بكل بساطة لإنجاز مخططهم، فهم أصحاب قوة خارقة لا تضاهيها قوة. **والتاريخ اليهودى** بأسره (من وجهة نظر أصحاب هذا النموذج) ليس إلا تعبيرًا عن هذه المؤامرة التى لا تتغير.

وقد تلقف التآمريون فضيحة **مونيكا لوينسكى** فأشاروا إلى أنها يهودية، ومن ثم فهى بلا شك جزء من هذا المخطط. وكأن كلينتون ليس رجلًا منفلت العيار مثل الملايين غيره، متناسين أن إحدى أفراد سكرتاريته امرأة يهودية أخرى حاولت قدر وسعها أن تبعد هذه الفتاة اللعوب وتَصْرفها عن هذا الرجل المنفلت، لتحمى مؤسسة الرئاسة الأمريكية منها ومن نزواته!.

ونلخص تصور التآمريين فى أن الصهيونية ليست ظاهرة مرتبطة **بحركيات التاريخ والفكر الغربى**، وإنما هى مجرد **تعبير عن هذا الشر الأزلى الكامن** فى النفس اليهودية.

*** مُخطط وليس مؤامرة**

اليهود بشر، ولا يمكننى أن أقول عنهم ما هو أسوأ من ذلك!

يخلط البعض بين المؤامرة والمُخطط. **فالمخطط** هو خطة أو إستراتيجية

تُعبِّر عن مصالح دولة ما أو مجموعة من الدول، يمكن فهمه والتصدى له بمخطط مضاد. وبذلك يكون أصحاب المخطط المعادى لنا بشر، ونحن بشر، والحرب بيننا سجال، إلى أن ينصر الله من ينصره.

أما المؤامرة فخطة سرية وضعها فى الظلام بضعة أفراد دوافعهم خسيسة شريرة، يحاولون قدر طاقتهم الحفاظ عليها طى الكتمان ويقومون على تنفيذها. والمؤامرة لا تتبع مسارًا مفهومًا وليس لها قوانين تحكمها. ويتصور أصحاب نموذج المؤامرة أن المؤامرة التى تحاك ضدهم موجودة فى وثيقة بعينها، تتضمن كلَّ أو معظمَ البنود. وبدلًا من فهم الواقع وتحليله وتفكيكه وإعادة بنائه لنفهم ما يُحاك لنتصدى له، تصبح مهمتنا هى ضرورة البحث عن مثل هذه الوثائق ودراستها بعناية.

و لا يعنى إنكار «**المؤامرة**» بأى حال إنكار أن أصحاب «المخطط» يبذلون قصارى جهدهم لكى ينفذوه بأى طريقة (أخلاقية أو غير أخلاقية) متاحة. لذا كثيرًا ما نجدهم يلجئون إلى المؤامرات، التى أدت إلى تقسيم العالم العربى واستعمار فلسطين، وكذلك مؤامرات أخرى أقل ضخامة مثل محاولات الاغتيال السياسى والتجسس وتقديم رِشا لبعض أعضاء النخب الثقافية والسياسية، وتحريك الأقليات بهدف إثارة القلاقل. وقد اعترف الإسرائيليون أنه كان لديهم 2000 عميل فى لبنان، ويقال إن عدد عملائهم أثناء الانتفاضة الفلسطينية كان مائة ألف).

* لِمَ أرفض نموذج المـؤامرة؟

ينطوى نموذج المؤامرة على دعوة إلى عدم الجهاد؛ لأنه نموذج يؤدى إلى الشلل التام. كنت فى إحدى الندوات أعرض وجهة نظرى، فقام أحدهم

وصرخ فى بصوت عالٍ: «**إن حربنا مع اليهود إلى يوم قيام الساعة**». قالها بحماسة شديدة جعلت الجمهور كله يصفق له بحماسة أشد، فقلت لهم: إن هذا القول يعنى أن قيام دولة إسرائيل جزء من مخطط إلهى، وأن انتصاراتها علينا «**أمر مكتوب**»، علينا تَقَبله إلى أن تحين الساعة !.

ويدلل التآمريون على وجود المؤامرة اليهودية بأن **النبوءات الصهيونية قد تحققت كلها**، ويشيرون بذلك إلى مذكرات هرتزل حين تنبأ بتأسيس الدولة الصهيونية فى غضون خمسين عامًا. ولكن هل قام أحدهم بحساب عدد النبوءات التى أطلقها هرتزل بثقة لكنها خابت؟. ما قولهم فى نبوءته بخصوص ألمانيا القوية التى ستأخذ اليهود تحت جناحيها، وتساعدهم فى مشروعهم الصهيونى؟. وما قول التآمريون عن نبوءات الصهاينة بتدفق يهود العالم على الوطن القومى اليهودى حيث يتم صهرهم فى بوتقة الصهر الصهيونية ليخرج منها العبرانى الجديد؟ ألا تُعَد أزمة الهجرة وأزمة الهوية التى يعانى منهما الكيان الصهيونى دليلين ناصعين على فشل النبوءات الصهيونية.

إن رفض نموذج المؤامرة يعنى **عدم تقبل الواقع السطحى مع رفض المقولات اللفظية الشائعة**، كما يعنى **عدم تقبل ادعاءات الصهاينة عن أنفسهم، بل** ينبغى إخضاعَها للنقد والبحث والتمحيص، والنظر إليها بحُسبانها **ظواهر تاريخية إنسانية** يمكن التعامل معها إن حربًا أو سلمًا. فاليهود جماعات يهودية تتغيَّر بتغيُّر الزمان والمكان، والصهيونية حركة سياسية نشأت فى القرن التاسع عشر فى أحضان الإمبريالية الغربية التى وضعتها موضع التنفيذ، ولولا دعمها لأصبحت الصهيونية شعارات حالمة، يطلقها مجموعة من صغار مثقفى يهود شرقى أوروبا ووسطها. نفعل كل ذلك دون

إغفال الادعاءات التوراتية والتلمودية باعتبارها **شعارات تعبوية وتبريرية مهمة**، تُطرَح أمام الرأى العام العالمى (أى الغربى) لتجنيده وراء الإمبريالية ومشروعها الصهيونى.

الثمرة السابعة والعشرون بعد المائة...

داء النصوصية، الكتب المقدسة وسلوك اليهود

يحاول المؤمنون **بنموذج العداء لليهود واليهودية** (التآمريون) تفسير سلوك اليهود فى ضوء ما جاء فى العهد القديم والكتب المقدسة اليهودية الأخرى (التلمود ـ كتب القبَّالاه ـ وبعض «الجهابذة» يضمون لذلك **بروتوكولات حكماء صهيون** بحُسبانه كتابًا مقدسًا باطنيًّا عند اليهود! وهو فى واقع الأمر وثيقة مزيفة تنسب لليهود كل شرور العالم، ولكنها فى الوقت نفسه تنسب لهم قوة عجائبية وكأنهم آلهة أو أنصاف آلهه تسيطر على العالم).

ويتوهم التآمريون أن سلوك اليهودى تعبير مباشر عما تحويه كتبه المقدسة التى يعتبرها مخطط يهودى قديم. وبذلك على من يريد أن يفهم اليهود والصهيونية ويتصدى لهما ألا يُضَيِّع وقته فى قراءة الواقع وتفاصيله، وإنما عليه أن يذهب إلى كتبهم المقدسة التى سيجد فى نصوصها تفسيرًا لكل شىء!. وأطلق على الفرار من فهم الواقع واللجوء إلى النصوص اصطلاح (**داء النصوصية**).

لا يتنبه هذا المفهوم القاصر إلى أن **علاقة الإنسان بالكتب المقدسة** التى يؤمن بها **علاقة مركبة** إلى أقصى حد، كما أن أسلوب تفسيرها يمثل عاملًا حيويًّا فى تحديد هذه العلاقة؛ فيمكن أن يكون التفسير حرفيًّا مغلقًا ويمكن أن يكون مجازيًّا منفتحًا، لذلك فإن تفسير الصهاينة لنص ما يختلف عن

تفسير اليهود الإصلاحيين له. وأخيرًا لا يدرك هؤلاء التآمريون أن **غالبية اليهود فى العصر الحديث لا تؤمن بهذه الكتب أساسًا ولا تقرؤها!**، وقد قال أحد كبار المفكرين الدينيين اليهود أن عينيه لم تقعا على التلمود إلا فى عيد ميلاده الستين، حينما أهداه أحدهم نسخة كاملة منه !.

وقد استشرى مرض النصوصية وانتقل من اقتباس الكتب المقدسة إلى **اقتباس أى تصريح صهيونى وتصديقه** والإشارة إليه كجزء من المخطط القديم، دون دراسة أو تأمل. فعلى سبيل المثال، حينما صرح أحد الصهاينة عام 1983 أنه سيتم توطين مليون يهودى فى الضفة الغربية قبل نهاية القرن الحالى، ارتجف الكثيرون واقتبسوا هذا القول بموضوعاتية متلقية بلهاء، دون أن يسألوا أنفسهم سؤالًا بديهيًّا: من أين سيأتى هذا الصهيونى بكل هؤلاء المستوطنين؟.

*** كيف النجاة من داء النصوصية؟**

والصواب أن نخضع مقولات الصهاينة وتصرفاتهم **للتمحيص والتحليل**؛ فلا نهون ولا نُهَوِّل ولا نكتفى بالتلقى السلبى والرصد الآلى. فإذا نظرنا إلى تصريح «المليون مستوطن» وجدنا أن مثل هذا التصريح يُطلق حتى يمكن لإسرائيل الحصول على المزيد من بلايين الدولارات من الولايات المتحدة. كما أن كثيرًا من المهاجرين «اليهود» ليسوا يهودًا !، بل مواطنين غير يهود أرادوا أن يجدوا طريقة للخروج من الاتحاد السوفييتى (أخبرنى أحد الأصدقاء الفلسطينيين أنه رأى بنفسه وفدًا من المهاجرين «اليهود» السوفييت فى زيارة لحائط المبكى، وحينما سمعوا الآذان انسلخ ثلاثة أو أربعة أفراد من صفوفهم وذهبوا إلى المسجد لأداء الصلاة!).

كذلك ينبغى ـ كما ذكرت قبلًا ـ **التخلص من فكر المؤامرة**، والنظر إلى الصهيونية باعتبارها ظاهرة تاريخية إنسانية يمكن التعامل معها إن حربًا أو سلمًا.

الثمرة الثامنة والعشرون بعد المائة...

نظرية المؤامرة اليهودية والخطاب الإسلامى

لا يحتاج الأمر لتأمل عميق حتى ندرك أن نموذج المؤامرة يسيطر على الخطاب الإسلامى المناهض لإسرائيل، ويتبنى هذا الخطاب **وجود «استمرارية» بين يهود الماضى والحاضر والمستقبل**، وهذا هو جوهر ما تروج له الصهيونية!.

* حوار مع الخطاب الإسلامى التقليدى

كنت أجلس مع بعض صناع القرار فى العالم العربى (من ذَوى الاتجاهات الإسلامية)، وتطرق الحديث إلى يهود المدينة وخيبر «وتآمرهم»، وكيف أن **نفس التآمر اليهودى مستمر**. فسألتهم: هل كان أولئك اليهود يعرفون التلمود بما يحوى من عداء للأغيار؟ ثم أضفت سؤالًا عن موقف يهود العالم آنذاك من يهود المدينة، وهل كانوا يعترفون بهم يهودًا وكانوا على صلة بهم ويؤازرونهم أو لا؟ ثم أثرت قضية: هل مصطلح «**يهودى**» فى **القرآن** يشير إلى يهود المدينة، أم إلى يهود العالم المعاصرين للبعثة المحمدية، أم إلى يهود العالم فى الماضى والحاضر والمستقبل؟ أى أننى أثرت تساؤلات بخصوص «الاستمرارية» التى يفترضونها.

ثم أشرت إلى أن الحضارة الإسلامية عَامَلت أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارهم «**أهل الذمة**»، فلم يشهد تاريخنا عمليات هجوم أو إبادة أو

طرد لليهود، بل إن أعدادًا كبيرة منهم دخلت الإسلام وحَسُنَ إسلامها وانصهرت فى مجتمعات المسلمين. وينبغى تذكر أن عمليات الطرد التى تمت فى بداية الحكم الإسلامى كانت نتيجة لخرق المواثيق مع المسلمين، وكانت تهدف إلى تأمين قلب الأمة الإسلامية. كذلك كان عقاب الطرد لجماعة بدوية عقابًا مقبولًا لدى الجميع، إذ يتبعه ببساطة إعادة التوطين فى منطقة أخرى.

وأخيرًا ذكرتهم **بمفهوم «الفطرة» الإسلامى** الذى يعنى أن الإنسان يولد على الفطرة، ومن ثَمَّ فمفهوم «**الهُوية**» كنتاج للوراثة غير معروف فى الإسلام، وحينما يتبناه التآمريون فإنهم يتبعون مفهومًا غير إسلامى. لذلك ـ من منظور إسلامى ـ **لا ينبغى أن يؤخذ يهود هذه الأيام بجريرة يهود الماضى،** فالخطيئة ـ مثل الاستقامة ـ لا تُوَرَّث. لهذا نجد أن الخطاب القرآنى لا يتحدث عن اليهود فى عموميتهم، وإنما دائمًا يخصص مجموعة منهم («ومن أهل الكتاب...»).

فوجئت بأحد الحاضرين يخبرنى أن ما أقوله مقنع للغاية، ثم رجانى ألا أذكره خارج هذه الجلسة! فضحكت وقلت: «أنت إذن تفضل الحكمة البراجماتية (الفهم الشائع) على الحكمة الإلهية». وانفض المجلس!.

*** اجتـهادات**

تساءلت أثناء الحوار: هل المسلم مُلزم بالتعريف الإسلامى لليهودى (من أهل الكتاب ويؤمن بكتاب مقدس، ومن ثَمَّ يؤمن بالله وباليوم الآخر)، أم بالتعريف اليهودى (من يؤمن باليهودية وولد لأم يهودية)؟ والسؤال طبعًا خطابى، فالمسلم ملزم بالتعريف الإسلامى وحده، ومن ثَم **فالغالبية الساحقة ليهود العالم لا ينطبق عليها التعريف الإسلامى لليهود !.**

ثم زدت فطرحت اجتهادى الأَوَّلى (والذى وافقنى عليه كثير من الفقهاء) وهو أن مصطلحًا مثل «يهودى» يشير إلى شخص تتوافر فيه **بعض السمات التى إن توافرت فى أى شخص (ملحدًا كان أو بوذيًّا) فإنه يصبح يهوديًّا** (باعتبارأن لفظة «يهودى» بهذا المعنى لا تختلف فى استعمالها عن لفظة «فرعون»، والتى لا تعنى «حاكم مصر»، وإنما أى شخص تتوافر فيه سمات «الفرعنة»). وعلى كلٍّ، فهذا **اجتهاد أوَّلى أطرحه كتساؤل على الفقهاء**، حتى يُفتح باب الاجتهاد بخصوص هذه القضية. فالفقه الإسلامى – نظرًا لاستقرار وضع اليهود (كأهل كتاب داخل المجتمع الإسلامى)، ونظرًا لعدم أهميتهم، ونظرًا لعدم توافر المعرفة الكافية بتطور اليهودية واليهود – لم يتعمق فى الموضوع بما فيه الكفاية. والفقهاء كانوا على حق فى ذلك، فكل مجتمع يحاول أن يجيب على الأسئلة الحية التى تهمه. لكن الوضع اختلف تمامًا الآن، فإشكالية اليهود أصبحت إشكالية مركزية.

الثمرة التاسعة والعشرون بعد المائة...

البعد الدينى فى الصراع العربى الإسرائيلى

يَعيب عَلَىَّ البعض أننى برؤيتى هذه **أخرج بالصهيونية من إطار الصراع الدينى الثابت، وأدخل بها فى إطار الصراع السياسى المتغير**، ومن ثم فإن **الدافع الدينى** للحرب ضد العدو يتم تحييده بهذه الطريقة.

وأرد على هؤلاء بقولى: من قال إن الجهاد الدينى لا يكون إلا ضد اليهود، واليهود وحدهم، واليهود دون سواهم؟! **ألا يجب الجهاد ضد من اغتصب الأرض وطرد الأهل مهما كانت ملته وديانته**، يهوديًّا كان، أو مسيحيًّا، أو ملحدًا، **أو حتى مسلما**؟ ألا يجب الجهاد ضد نظام عالمى جديد

يريد أن يمسك العالم بقبضة حديدية ويفرض إرادته الغاشمة؟ أليس من الواجب أن **نعرف عدونا**: نعرف هُويتَه وسماته الخاصة والقوانين المتحكمة فى حركته، دون أن نخلد إلى الصيغ العامة التى لا تُغنى ولا تُسمن من جوع فى الصراع اليومى، والتى تريحنا نفسيًّا دون أن تُحَسِّن أداءَنا الجهادى؟.

إننا **نحارب ضد الصهاينة لا لأننا نكره اليهود**، فديننا السمح لم يأمرنا بكره أحد (وعلى أى حال عادة ما أؤكد أن الدولة الصهيونية ليست دولة يهودية، وإنما هى دولة استيطانية إحلالية) كما أن الجهاد الذى ينطلق من الكُرْه يمكن أن يُوَّلد الفتن والتعصب الذى يفكك نسيج الأمة. كذلك فالجهاد يجب ألا يستند إلى العاطفة وإنما إلى شىء أكثر ثباتًا ووضوحًا وهو **الرغبة الايمانية فى إقامة العدل فى الأرض. فالقيمة القطب فى الإسلام هى العدل**. وقد جاء فى الحديث الشريف «**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**»، قالوا «ننصره مظلومًا يا رسول الله، ولكن كيف ننصره ظالمًا؟»، قال «**بأن تردوه عن الظلم الذى هو فيه**». هذا فى تصورى هو البعد الدينى للجهاد.

الثمرة الثلاثون بعد المائة...

حتى لا ننسى... فضيحة لافون

قبل أن نترك موضوع اكتشاف اليهود واليهودية والصهيونية، وحتى لا ننسى، ينبغى أن نُعَرِّف الأجيال الجديدة بأسوء المهام المشبوهة التى قام بها الصهاينة سرًا فى مصر، تلك التى أصبحت معروفة باسم فضيحة لافون.

ففى سنة 1955، قام 13 يهوديًّا مصريًّا ـ بناء على تعليمات من إسرائيل ـ بوضع متفجرات فى مكتبة المركز الإعلامى الأمريكى فى القاهرة، وفى منشآت أخرى مملوكة لأمريكا وبريطانيا فى القاهرة والإسكندرية. كان الهدف من

هذه الأعمال هو إيجاد حالة من التوتر فى علاقات مصر مع هاتين الدولتين، وكما أوضح يورى أفنيرى فى كتابه **إسرائيل دون صهاينة**: «كان المقصود من هذا التوتر تمكين العناصر الاستعمارية الرجعية فى البرلمان البريطانى **من منع إبرام اتفاقية تنص على الجلاء من قواعد السويس، وكذلك دعم موقف معارضوا تسليح مصر فى الولايات المتحدة**». ولكن قبل كل شىء كان الهدف من العملية التخريبية هو **إضعاف مظهر نظام الحكم الثورى الجديد فى مصر** وإظهار افتقاره إلى الاستقرار أمام العالم.

وقد أُلقى القبض على جميع الصهاينة المشتركين فى المؤامرة. وكان طبيعيًّا أن يتكرر فى أعقاب محاكمتهم نفس الاتهامين المعتادين عن معاداة العرب للسامية وعن المكايد التى يدبرونها للأبرياء. وتدور الأيام وتقوم الدولة الصهيونية بالاعتراف بتورطها، بل وتمنح رتبة ميجور فى الجيش الإسرائيلى لاسم الدكتور مرزوق (أحد زعماء الشبكة) بعد أن أعدمته السلطات المصرية. كما أُطلق عليه هو وزميله صمويل عزار اسم شهيدى القاهرة.

***

حصاد الموسوعة

الثمرة الحادية والثلاثون بعد المائة...

الحصاد

القارئ الكريم...

يمكن أن نُعرِّف الموسوعة بأنها **دراسة لحالة محدَّدة**، هى: اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل فى ظل الحضارة الغربية، وهى دراسة تاريخية اجتماعية مقارنة تُرَكز على العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية بين أعضاء الجماعات اليهودية من جهة وأعضاء المجتمعات المختلفة من جهة أخرى، كما تركز على الأبعاد المعرفية لهذه العلاقات.

لكن هذه الدراسة، رغم أنها دراسة حالة، إلا أنها **تعرض نماذج تحليلية مركبة ذات مقدرة تفسيرية تتجاوز الحالة موضع الدراسة**. فهذه النماذج **تتوجه لقضايا** عامة مثل: علاقة الأقلية (بخاصةً أعضاء الجماعات الوظيفية) بالأغلبية، وعلاقة الأقليات بالدولة القومية المركزية، وطبيعة الحضارة الغربية الحديثة، وعلاقة الإنسان بالطبيعة، وعلاقة الحلولية بالتوحيد، وعلاقة الفكر بالمادة، وعلاقة الذات بالموضوع.

وأول هذه النماذج هو **نموذج الجماعات الوظيفية**، حيث درسنا من خلاله الجماعات اليهودية فى إطار عِلم اجتماع الأقليات والجماعات التجارية الهامشية والجماعات العرقية. **وهنا يظهر اليهودى باعتباره عضو أقلية أو جماعة وظيفية**، يحدث له ما يحدث لكل أعضاء الأقليات والجماعات الوظيفية الأخرى.

أما النموذج الثانى فهو **نموذج العلمانية الشاملة**، وهو نموذج أكثر اتساعًا من نموذج الجماعات الوظيفية، إذ لا يضع اليهود فى سياق الأقليات وحسب وإنما فى سياق التشكيل الحضارى الإمبريالى الغربى، وهو التشكيل الذى هيمن على العالم بأسره. وهنا **يظهر اليهودى باعتباره الإنسان الغربى الحديث**، وما يحدث له (من اندماج ودمج وتدجين وتوظيف وتنميط وعلمنة وإبادة) هو ما يحدث للملايين من البشر فى العصر الحديث. وهو إنسان يعيش فى عصر أزمة الحداثة (ما بعد الحداثة).

أما النموذج الثالث فهو **نموذج الحلولية الواحدية** مقابل نموذج التوحيد والتجاوز إلى ما هو إلهى، وقد بَيَّن د. المسيرى أن الصراع بين النموذجين يشكل التوتر الأساسى فى اليهودية (وفى كل الأديان). فهو **تعبير عن تناقض إنسانى أساسى يُميز إنسانيتنا المشتركة**، يأخذ شكل **النزعة الجنينية** (بما فيها من رغبة فى فقدان الهُوية والالتحام بالكل والتخلى عن الوعى وعن المسئولية الخُلُقية) فى مقابل **النزعة الإنسانية والربانية** (وهى أن يؤكد الإنسان هُويته الإنسانية المستقلة عن الطبيعة، ومن ثَم يتحمل المسئولية الخُلُقية عن هذا الوضع).

وبعد هذه النظرة «**لليهودى**» من خلال مفهوم النماذج، نوجز ما طَرَحَته الموسوعة عن «الصهيونية» من خلال نفس النماذج. «**فالصهيونية**»

ـ فى تصور د. المسيرى ـ ليست مجرد تعبير عن المؤامرة اليهودية، أو حتى «السياسة» الغربية الإمبريالية (كما توحى النظرة السياسية السطحية)، بل هى أمر أكثر تركيبًا، فهى أولًا شكل من أشكال **الحلولية**، إذ يصبح اليهود مرجعية ذاتهم. وهى ثانيًا شكل من أشكال **العلمانية الشاملة** (أى فصل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية عن الحياة)، إذ هى تنزع القداسة عن كل الأشياء، عن كل من اليهود والعرب وعن أرض فلسطين، فيصبح الجميع مادة استعمالية. وهى، فى نهاية الأمر، بتوجهها العِرْقى وشراستها الداروينية، تعبير عن **التشكيل الإمبريالى**، ولكنها تعبير خاص للغاية؛ إذ إن الدولة الصهيونية ليست جزءًا لا يتجزأ من الإمبريالية، وإنما هى **دولة وظيفية** أُسِّست لخدمة مصالح الغرب، ولذا فالعلاقة بينها وبين الغرب **علاقة نفعية تعاقدية**، ومن هنا نجد أن الغرب يؤيدها بكل قوة فى الوقت الحالى.

وهنا تطرح الموسوعة تساؤلًا: ماذا لو أصبحت إسرائيل عبئًا على النظام الإمبريالى الغربى؟ **هل التزامه بها التزام أخلاقى مبدئى** كما يدَّعى، أم هو نفعى عملى، كما هو دأب الغرب وديدنه؟ ويجيب د. المسيرى بأن الدولة الصهيونية لو أصبحت استثمارًا إستراتيجيًّا مكلفًا للغرب، فإن موقفه منها سيتغير بطبيعة الحال.

فى ضوء ما سبق، ينظر د. المسيرى إلى الإسرائيليين والصهاينة واليهود على أنهم **بشر يمكن الحوار معهم** على مائدة المفاوضات، كما يمكن **الحوار المسلح معهم** فى أرض المعركة، فيولون الأدبار، كما فعلوا فى جنوب لبنان.

ويمكن القول بأن الموسوعة ككل هى عمل كتبه مؤلف يشعر بأن **الحداثة** (فى إطار العقلانية واللاعقلانية المادية والعلمانية الشاملة) قد أَدخلَت الجنس البشرى بأسره فى طريق مسدود. ولذلك **يطرح أسئلة معرفية (كلية ونهائية)**:

- ماذا يحدث للإنسان فى عالم بدون إله؟
- وماذا يحدث للإنسان فى عالم نسبى لا توجد فيه ثوابت ولا مطلقات ولا قيم عالمية؟
- وماذا يحدث للإنسان فى عالم توجد فيه حقائق بلا حقيقة ولا حق؟
- وما مصير الإنسان فى عالم انفصل فيه العلم عن القيمة وعن الغائية الإنسانية؟
- أليس اليهودى مثلًا صارخًا لما يحدث للإنسان فى عصر الحداثة؟ هذا اليهودى تم اقتلاعه عن وطنه وتهجيره إلى إسرائيل تحت مظلة الإمبريالية الغربية باعتباره مادة استعمالية، وتم تحويله إلى شخصية داروينية شرسة حتى يتسنى توظيفه فى خدمتها، وتمت إبادته فى ألمانيا النازية بطريقة منهجية، وتم دمجه فى الحضارة الاستهلاكية حتى لم يبق من ماضيه وهويته سوى القشور، وبذلك تم قمعه وترشيده من الداخل والخارج.

ومن هنا، **فإن الموسوعة تطالب بالبحث عن حداثة جديدة بدلًا من الحداثة الغربية (المرتبطة بالإمبريالية والاستهلاكية) والتى انتهت إلى إعلان موت الإنسان والطبيعة بعد أن أعلنت موت الإله.**

الثمرة الثانية والثلاثون بعد المائة...

إهداء الموسوعة

إلى أبى سعيد، رحمه الله، وكل من صمد، وكل من سيصمد بإذن الله.

تعرفت على **الأستاذ خالد الحسن**، أحد مؤسسى منظمة فتح وزعمائها،

ووجدت نفسى فى حضرة إنسان مفكر، القضية الفلسطينية بالنسبة له ليست مجرد قضية وطنية أو حتى قومية، وإنما قضية مرتبطة برؤية للكون ورغبة فى تطوير مشروع حضارى مستقل. وحينما حل به مرضه الأخير، احتفظ بثباته وصموده ومقدرته الفكرية وقدرته على الدعابة حتى آخر لحظة. وبعد أسابيع، رحل عنا تاركًا ما ترك من فراغ. وقد عقدت حفلًا لتأبينه بعد رحيله عنا بعام، حضره كثير من رموز مصر الفكرية والسياسية من الحكومة والمعارضة. وقد أهديت إليه الموسوعة فى هذه الكلمات:

«كان يومًا عابقًا برائحة التاريخ والأزلية».

حَلَمْت أننى أسير فى حقول المشمش، رائحته الطيبة تمسنى مسًا، ونُـوَّراته البيضاء تحوم من حولى كفراشات نورانية. وحينما استيقظت كان الفرح يسرى فى كيانى.

وفى الصباح أخبرنى صديق أننا سنذهب إلى عزاء شهيد فلسطينى، حصده الرصاص وهو يحاول أن يعبر السلك الشائك ليعود للأرض. كان منزل الشهيد على قمة تل من تلال عمَّان، والطريق المؤدى له محاط بأشجار المشمش – رأيت نُوَّاراته البيضاء وشممت رائحتها. وحينما دخلت المنزل لم أسمع بكاء، ولم أر علامة من علامات الحزن، بل وجدتهم يوزعون الحلوى ويتقبلون التهانى ويقولون: «إن شاء الله فى البلاد». وكان الجميع يتحدث عن الفداء والتضحية.

جاء مجلسى إلى جوار عجوز من أتباع الشيخ عز الدين القسام (رحمه الله)، قال: «كنا نعلم تمام العلم أن أسلحتنا العثمانية عتيقة، وأننا كلما اشتبكنا مع الصهاينة والإنجليز فإنهم يحصدوننا برصاصهم، كما فعلوا مع ابننا

الشهيد. ومع هذا كنا ننزل كل ليلة من قرانا كى ننازلهم». فسألته: «لِمَ؟» صمت العجوز قليلًا ثم تحرك كأنه جبل قديم من جبال فلسطين، وقال: «**حتى لا ننسى الأرض والبلاد.. حتى لا ينسى أحد الوطن**».

وفى المساء زرت أبا سعيد، خالد الحسن. كان فى مرضه الأخير، ولكنه كعادته كان متماسكًا لا يتحدث إلا عن الصمود، وعن الوطن السليب، وعن العودة إلى الأرض، إلى البلاد. وكانت معى أولى نسخ هذه الموسوعة فأعطيتها له، فأمسك أحد المجلدات وابتسم.

حين خرجت من المستشفى تساءلت: «**هل تموت الفروسية بموت الفارس؟ هل تموت البطولة باستشهاد البطل؟ وهل يختفى الصمود إن رحل بعض الصامدين؟**» ثم تذكرت كلمات العجوز فى فرح الشهيد. حينئذٍ عرفت الإجابة، فسرى الفرح فى كيانى.

إلى أبى سعيد، رحمه الله،

وكل من صمد،

وكل من سيصمد بإذن الله».

* نموذج آخر من الصامدين

كانت تربطنى بالرئيس **على عزت بيجوفيتش**، رئيس البوسنة، رابطة فكرية عميقة. فقد قرأت كتابه الإسلام بين الشرق والغرب، وأدركت أننى أمام عمل فكرى متكامل من الطراز الأول، فهو يقدم تحليلًا عميقًا للحضارة الغربية. وحين حضر إلى القاهرة عام 1995 عقدت على شرفه حفلًا حضره بعض المثقفين المصريين وأجاب عن أسئلتهم بطريقة تبين مدى اتساع ثقافته.

ولكنه قال إنه ترك الثقافة منذ مدة طويلة؛ لأنه أصبح مشغولًا بأمور أخرى سياسية مباشرة، مثل توفير السلاح للمجاهدين البوسنيين الذين يحاولون إثبات أن التهام أهل البوسنة ليس بالأمر السهل ولا يمكن أن يتم فى عدة أيام (كما كان يتصور الصرب وأوربا من خلفهم، التى كانت على أتم استعداد لأن تقيم مأتمًا لإحياء ذكرى البوسنيين بعد إبادتهم !). وعند هذه اللحظة بكى على عزت بيجوفيتش، ومسح الدموع من عينيه واستمر فى الحديث مبتسمًا.

الثمرة الثالثة والثلاثون بعد المائة...

فكر د. المسيرى فى ميزان المفكرين والنقاد

* لستُ حاسوبًا

للأسف الشديد قام كثير من النقاد لفترة طويلة بحصر دراساتى المختلفة داخل إطار المعلومات الضيق، وظل الشكل الأساسى لمناقشة كل ما أكتب هو **البُعد السياسى المعلوماتى، مع إهمال البُعد الفلسفى المعرفى.** على سبيل المثال، بعد مرور 15 عامًا من نشر كتابى «نهاية التاريخ» نشر **فرانسيس فوكوياما** (الموظف بوزارة الخارجية الأمريكية من أصل يابانى) كتابًا بنفس العنوان عام 1988، وقام بعض المفكرين بمناقشة كتابه، ولم يذكر أحد منهم كتابى بالخير أو بالشر، ولم يقارن أى منهم بين رؤيتى للتاريخ ورؤية فوكوياما، فالتصنيف فى عالمنا العربى يرصد ويصنف من الخارج دون أن يصل إلى الوحدة الداخلية للموضوع، وقد صُنِّف كتابى على أنه كتاب عن «الصهيونية» (كتاب سياسى) أما كتاب فوكوياما فعن «التاريخ» (فهو تاريخ)، أما المفاهيم الكامنة وراء الفكر فيتم تجاهلها. كذلك فإن الهزيمة

الداخلية فى الفكر العربى تجعل من الغرب المرجعية الوحيدة ومصدر المعرفة الأوحد، ولذا **لم يتصور أحد أن كتابى ربما يكون قد طرح أفكار فوكوياما قبله بعدة سنوات.**

حاولت أن أدعو النقاد إلى رؤية ما أكتب فى إطار معرفى تحليلى يتجاوز الإطار المعلوماتى التراكمى، ولذا **أُعطى عنوانًا فرعيًّا لمعظّم كُتبى** (الأيديولوچية الصهيونية: دراسة حالة فى علم اجتماع المعرفة ـ الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية: دراسة فى الإدراك والكرامة، وأخيرًا هجرة اليهود السوفييت: منهج فى الرصد وتحليل المعلومات).

وقد كتبتُ فى مقدمة الكتاب الأخير: «أرجو ألا يقال: هذا كتاب جيد لأنه اعتمد على آخر المراجع والدراسات ويحوى معلومات قيمة وحقائق كثيرة عن هجرة اليهود السوفييت»، أو يقال «هذا كتاب سيئ لأنه لم يعتمد على آخر المراجع والدراسات ولا يضم كل المعلومات والحقائق أو حتى معظمها»، **فالحاسوب**، هذه الآلة المادية الصماء، هو الذى يضم كل المعلومات والحقائق أو معظمها، ولكنه مع هذا عاجز تمامًا عن ربطها أو تفسيرها أو صياغة نماذج تفسيرية ومتتاليات احتمالية، فعقل الإنسان وحده هو القادر على ذلك. ونحن قد كتبنا هذه الدراسة آملين ألا نقدم الحقائق والمعلومات وحسب، وإنما لنطرح بالدرجة الأولى **منهجًا فى رصد الواقع وطريقة فى التفكير**، إذ إن ما يهم ليس كَمُّ الحقائق الذى يُحشد، وإنما طريقة النظر فيها وتحليلها». ورغم هذا التحذير قام كثير من الكُتَّاب بمدح وتقريظ هذا الكُتاب بسبب ما يحوى من «معلومات قيمة». فالآلة الإعلامية قادرة على فرم الكاتب وإعادة إنتاجه داخل النموذج المعلوماتى وكأنه مجرد كومبيوتر ممتاز، لا إنسان يحلل ويفسر.

وبالمثل، فقد تمت قراءة كتاب «الفردوس الأرضى» بطريقة سياسية محضة، مع أنه كتاب يتعامل مع الأبعاد المعرفية والحضارية للواقع الأمريكى.

*** من المفكرين من أدرك البعد المعرفى والمنهجى فى فكرى**

فى المدخل الذى كتبه فريدريك معتوق فى الموسوعة الفلسفية العربية عن علم اجتماع المعرفة عند العرب، اشاد بكتابى «الأيديولوچية الصهيونية» واعتبره **جهدًا فكريًّا وطرحًا لقضايا فلسفية** تتجاوز موضوع اليهود واليهودية والصهيونية.

نشرت باربرا هارلو كتابًا باللغة الإنجليزية عن شعر المقاومة فى العالم، وأشادت فيه برؤيتى لجماليات شعر المقاومة الفلسطينية **والإشكالية الفلسفية الكامنة فيه.**

كما قدمت د. فريال غزول (الأستاذة بالجامعة الأمريكية) عرضًا متميِّزًا لكتابى «**الانتفاضة الفلسطينية والأزمة**». وتعاملت مع الكتاب بوصفه **دراسة فى النماذج المعرفية**، ووصفت الكتاب بأنه «عمل كلاسيكى جديد «يمزج بين السياسة الثورية وتحليل الخطاب.

وفى معجم دليل الناقد الأدبى (للدكتور ميجان الرويلى وسعد البازعى) أفرد المؤلفان صفحة للحديث عن المحاولة التى أقوم بها **للتحليل من خلال نماذج معرفية** سواء فى دراسة الصهيونية كجزء من الحضارة الغربية أو دراسة حركة التمركز حول الأنثى كتعبير عن نموذج الحلولية.

أما بالنسبة لكتبى التى صدرت فى **النصف الثانى من التسعينيات** (أسرار العقل الصهيونى - الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ - اليد الخفية)

فقد كَتَب عنها كثير من المعلقين السياسيين بطريقة معرفية، وتناولوا الجوانب الحضارية **والفلسفية المختلفة التى تطرحها هذه الكتب**، ولعل كتابات الأستاذ سلامة أحمد سلامة من أهم ما كُتب عن مؤلفاتى بهذا المنظور.

*** كيف استقبل المفكرون الموسوعة؟**

ثم صدرت الموسوعة، لقد فاق التلقى الإعلامى كل توقعاتى. كنت أتصور أنها ستُعرف كأداة بحثية خلال عامين أو ثلاثة. ولكن ما حدث أننى **خلال شهر واحد وجدت نفسى محط اهتمام الإعلام المحلى والدولى**، وهذا الاهتمام الإعلامى لم يكن أمرًا مألوفًا لدى، فتوقفت - لأول مرة فى حياتى - عن التفكير والتأمل والقراءة والكتابة؛ لأن الجهد الذى كنت أبذله فى الإجابة عن الأسئلة والظهور فى البرامج كان يستنفد كل طاقتى، ووجدت أن الاهتمام الإعلامى أصبح يهدد حياتى الفكرية بالخطر، ولذا تبنيت شعارًا طريفًا أطرحه على الإعلاميين حين قررت الاختفاء والعودة إلى عالمى الهادئ: «أنا أفكر إذن أنا غير موجود»، بمعنى أننى حينما أستغرق فى حياة الفكر، فلن أكون موجودًا لأجيب عن أسئلة الصحفيين.

وكان **الأستاذ هيكل** من أوائل من تلقوا نسخة من الموسوعة، وعندما أدلى برأيه فيها قال: «إن مؤلف موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية **أعطى أحلى سنوات عمره حاملًا عبأً علميًّا وبحثيًّا وتنظيميًا وماليًّا** اقتص ضرائبه من شبابه ومن صحته ومن اهتماماته الثقافية المتنوعة». «والموسوعة **عمل أظنه نادرًا فى نوعه وفريدًا**. وهو عمل أقبل عليه وتحمل مسئوليته صديقنا العزيز والمقتدر الدكتور عبد الوهاب المسيرى الذى وضعنا جميعًا أمام جهد معرفى وسياسى بالغ الأهمية جليل الأثر يستحق أن نقف معه بكل الاهتمام وبكل الاحترام».

وأفرد **الأستاذ عادل حسين** نصف صفحة من مقاله الأسبوعى فى جريدة الشعب (26 من مارس عام 1999) للموسوعة، جاء فيه: «فموسوعة عبد الوهاب المسيرى إذا كانت فى جانب منها تقوم على جبل أشم من المعلومات المدققة، فإن الجانب الآخر الأهم هو **قدراته التنظيرية الجبارة**، فهذه القدرات هى التى أعطت موسوعته مغزاها المعرفى المتميز». «إن عبد الوهاب بفضل الله **صاحب عقلية نقادة** قادرة على النفاذ إلى أعماق ما يقرأ، وقادرة على كشف الزيف والتناقضات فيما يقرأ داخل المراجع الغربية واليهودية، وقادرة بالتالى على تحليل المعلومات المنشورة، وإعادة تفسيرها وتركيبها على نحو يجعلنا أقدر على فهم اليهود، وعلى فهم واقعهم الحالى، وما جرى لهم فى التاريخ. وقد **ابتكر فى ذلك مفاهيم نظرية جديدة**، وسك لها مصطلحات ملائمة، ويُعَدُّ هذا إضافة مُقدَّرة للفكر العربى والعالمى فى المجالات المختلفة للعلوم الإنسانية والاجتماعية». «إن **الموسوعة سلاح معرفى إستراتيجى بَتَّار** فى مواجهتنا مع إسرائيل، ومع الحلف الصهيونى الأمريكى، فالشرط الأول لهزيمة العدو، هو أن تعرفه حق المعرفة».

وقد تناول عادل حسين فى المقال نفسه كتاب إشكالية التحيز وعَدَّه «**من أهم المؤلفات التى صدرت فى الأعوام الأخيرة (على مستوى العالم)**، وهو حافز للإبداع العربى فى مواجهة المقلدين لنظريات الغرب دون وعى أو بصيرة».

ثم توالت بعد ذلك الدراسات والمقالات عن الموسوعة، فقيل عنها:

(أهم إصدار ثقافى فى النصف الثانى من القرن العشرين)

جمال الغيطانى فى الأخبار، وصلاح منتصر فى الأهرام.

(نستطيع أن نقول – دون مبالغة – بَدَأَت مرحلة ما بعد الموسوعة)

أحمد رجب فى الأخبار، ووجيه أبو ذكرى فى الوفد، وأحمد ثابت فى السياسة الدولية، وعبد العال الباقورى فى العربى (القاهرية).

(رجل فى مؤسسة ومؤسسة فى رجل)

د. أنيس صايغ فى السفير (لبنان).

***